413

HARLEQUIN

روايات أحلام

حبيبتي كاذبة

لين غراهام

www.elromancia.com
مرمورية

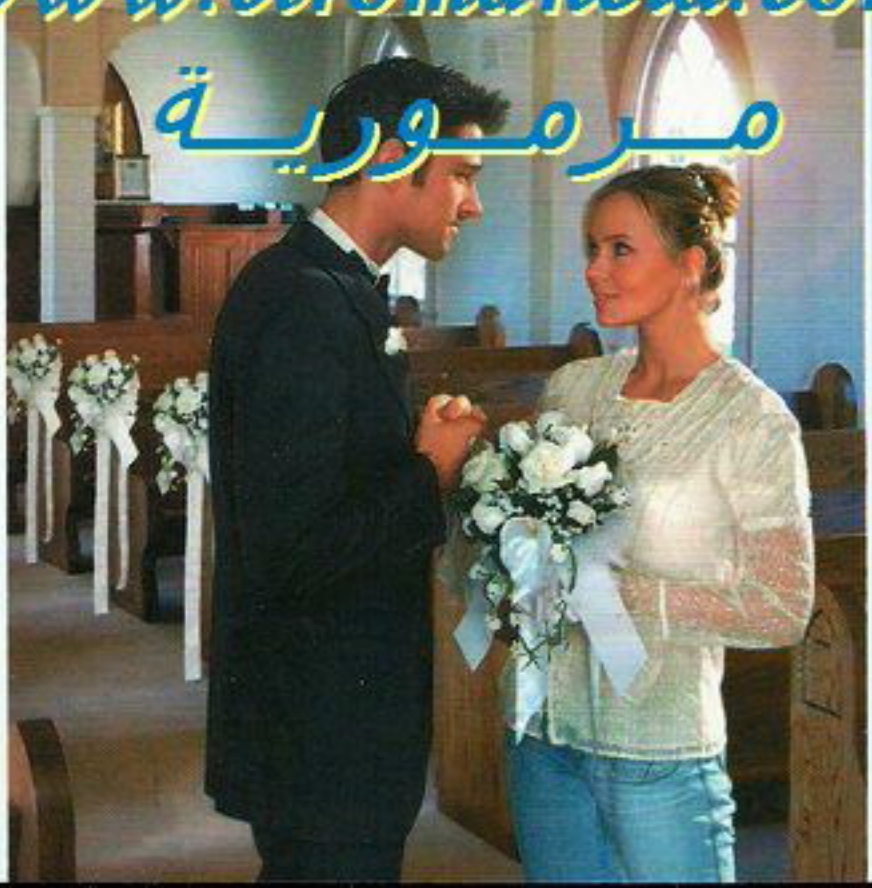

حبيبتى كاذبة

إنه لا يستطيع أن يتذكر لماذا تزوج هيلاري؛
كان رجل الأعمال راوول ساباتينو يشعر بالضياع. فقد كان يعاني من فقدان الذاكرة بعد حادث اصطدام. ثم اكتشف أن لديه زوجة لا يستطيع أن يتذكر عنها شيئا.
هيلاري فتاة لطيفة. جميلة... ولكنها عادية جدا؛ فلماذا تزوجها؛ والأهم لماذا ما زالت عذراء؛
وكأن كل هذا لا يكفي. حتى تفاجئه هيلاري بالرحيل. بالضبط عندما بدأ يتذكر....

لين غراهام

ولدت في شمال إيرلندا، خلال سنوات المراهقة كانت من القراء المتحمسين لـ «ميلز أندبون». تعيش لين زواجاً سعيداً مع زوجها المتفهم، الذي تعلّم الطهو ما أن بدأت هي بالكتابة!

حياتها مليئة بالحيوية والنشاط بسبب أطفالها الخمسة وكلبها الكبير الذي يثير الفوضى في كل مكان، كما أنها تملك كلب صيد صغير من نوع «الغرير» وعندما تسنح لها الفرصة تعمل في حديقة منزلها بنشاط.

١ - رجل جعلها تبكي

قال راوول ساباتينو، الأسمر الوسيم الرزين، عابساً: «من الطبيعي ألاّ تجدد عقده. لا مكان في «مصرف ساباتينو» لمدراء فاشلين».

كان صاحب مصرف عالمي ورجلاً مشغولاً، ما جعله يعتبر هذه المحادثة مضيعة لوقته الثمين. وتنحنح مدير أعماله ستيفن: «أظن... لعل حديثاً قصيراً يعيد راولنسن إلى الطريق المستقيم...».

فقاطعه راوول بنبرة باردة كالثلج: «أنا لا أؤمن بالأحاديث القصيرة ولا أمنح فرصاً ثانية. إن سمعة مصرفنا تقوم على كفائتنا».

أخذ ستيفن يفكر في راوول الذي يعرفه خبيراً ذائع الصيت في عالم الاقتصاد. كان ثرياً سويسرياً من سلالة أصحاب المصارف الخاصة الذين شهد لهم الجميع بالذكاء والكفاءة. لكن رغم ذكائه البالغ ونجاحه الهائل، لم يكن يظهر أيّ عطف على مستخدميه. في الواقع، كان مرهوب الجانب قدر ما هو محط إعجاب.

ومع ذلك، قام ستيفن بآخر جهد للتوسط لذلك الموظف السيء الحظ، فقال: «زوجة راولنسن هجرته الشهر الماضي..».

وجاء رد راوول الفظ: «أنا رب عمله ولست طبيبه النفسي. وحياته الخاصة لا تهمني».

وغادر مكتبه البالغ الفخامة ليهبط بمصعده الخاص إلى موقف

www.elromancia.com

السيارات تحت الأرض حيث استقل سيارته فيما فمه القويّ لا يزال ملتوياً بازدراء عابس. ما نوع هذا الرجل الذي يدع فقدانه امرأة يهدم حياته المهنية الواعدة؟ يا لها من شخصية ضعيفة عديمة القدرة على التحكم في الذات!.

وهزّ راوول رأسه المتكبر باشمئزاز بالغ. الرجل الذي يشكو مشاكله الشخصية، متوقعاً لذلك معاملة خاصة، شخص بغيض بالنسبة إليه. عاش راوول حياةً صارمة خالية من الفرح والاستمتاع، فقد هجرته أمه قبل أن يتقّن المشي. وتبدّدت أي لمحة من العناية والمحبة من حياته بين ليلة وضحاها، ثم أرسل إلى مدرسة داخلية وهو في الخامسة من عمره. وكان لا يُسمح له بزيارة منزله إلا إذا جاءت نتائج امتحاناته مرضية لأبيه. أريد له أن ينشأ خشناً قاسياً، وتعلم منذ طفولته ألاّ يطلب أو يرجو أي عون أو محبة من أحد.

رن هاتف سيارته وهو عالق في زحمة السير. وندم لأنه لم يستدع سيارته الليموزين مع سائقها الخاص. كانت المكالمة من محاميه، بول كوريرو، وبما أنّ الحديث تناول أموراً سريّة، فضّل أن يعتمد تعابير بول المتحفظة.

- بصفتي محاميك، أظن أن من واجبي أن أشير إلى أن الوقت حان لتضع حداً لعلاقة معيّنة.

كان راوول زميلاً لبول في الجامعة، وهما صديقان جيدان، فلا أحد غيره يجرؤ على التحدث معه بمثل هذه الإلفة. لكن مزاجه لم يحتمل المماطلة، فقال يستعجله: «أدخل في صلب الموضوع».

فتردد بول بشكل غير عادي: «منذ مدة وأنا أفكر في هذا الأمر. لكنني انتظرت حتى تثير أنت الموضوع، وقد مضى الآن أربع سنوات تقريباً. ألم يحن الوقت بعد لفسخ زواج المصلحة ذاك الذي

عقدته؟».

بدا صوت بول رخيماً وهو يتابع، من دون أن يدرك التأثير الذي أحدثه: «هلاّ اتفقنا على موعد ما هذا الأسبوع لأنني سأكون في إجازة ابتداءً من يوم الإثنين القادم».

رد راوول على الفور: «هذا الأسبوع مستحيل».

فقال بول بشيء من الارتباك: «أرجو ألاّ أكون قد تجاوزت حدودي بإثارة هذا الموضوع».

فقال راوول ضاحكاً: «يا إلهي، كنت قد نسيت هذا الموضوع، وأنت أخذتني على حين غرة!».

فقال بول: «لم أكن أظن هذا ممكناً».

- سأعاود الاتصال بك.. زحمة السير خانقة.

بدا فمه الجميل متوتراً. إن بول محقّ بالنسبة إلى موضوع ذاك الزواج. وعاد راوول بالذاكرة أربع سنوات إلى الوراء.

كيف سها عن قطع تلك الصلة الهشة؟ وذكّر نفسه بأنه كان مشغولاً إلى حد لا يصدّق.

كان جده كليمنت رجلاً صارماً مدمناً على العمل حتى بلغ الستينات. كان من كافة النواحي، أشبه بقطعة من الصخر. لكن، بعد أن تقاعد، وقع في غرام امرأة أصغر منه سناً، فتغيّر بشكل كامل واعتنق فلسفات الجيل الجديد حتى أنه تزوج تلك الشابة الباحثة عن الثروة. هذا السلوك أحدث جفاءً استمر لسنوات بين كليمنت وابنه المتحفظ والد راوول. لكن راوول بقي على اتصال بجده.

وعندما توفي الجد منذ أربع سنوات، لم يصدق راوول شروط وصيته الغريبة للغاية. أوصى الجد كليمنت بأنّ في حال لم يتزوج هذا الأخير، في وقت معين. يتحوّل قصر «كاستيلو ساباتينو»، منزل

الأسرة، إلى الدولة بدلاً، من حفيده، وندم راوول طبعاً أنه كان قد أخبر جده أنه لن يفكر في الزواج وإنجاب وريث حتى يصبح في أواخر منتصف العمر.

ورغم أن راوول تربّى على احتقار العواطف، إلا أنه ما زال يحتفظ بذكريات بعيدة من عهد الطفولة، لزيارات سعيدة إلى بيت الأسرة «كاستيلو ساباتينو». ورغم أنه من الثراء بحيث يمكنه شراء مئة قصر، إلا أن لقصر كاستيلو مكانة خاصة لديه.

لقد سكن آل ساباتينو القصر الذي يشرف على وادٍ سحيق منذ مئات السنين. وقد تملك راوول الفزع وهو يرى نفسه مهدداً بخسارة القصر إلى الأبد.

وبعد شهرين، وفيما كان في رحلة عمل إلى لندن، اتصل بمحاميه بول وحدّثه عن المشاكل الناتجة عن وصية جده. وبما أنه كان أثناء إجراء هذا الاتصال في مكان عام، إذ كان يحلق شعره، اعتمد اللغة الإيطالية، توخياً للسريّة. لكنه علم أنه أخطأ فحلاّقة الشعر سارعت إلى إظهار تعاطفها معه، وعرضت عليه أن تلعب دور الزوجة الزائفة، كي يبقى قصر «كاستيلو ساباتينو» للأسرة.

وفي النهاية، باعته هيلاري روس يدها في زواج صوري.

كم أصبح عمرها الآن؟ لقد بلغت الثالثة والعشرين في عيد العشاق الأخير. كانت صغيرة الحجم لكنها ذات مفاتن رائعة وذوق بديع في اختيار الأزياء، فالسواد من الرأس حتى أخمص القدمين وزينة وجهها تجعلها تبدو كمصاصة دماء. كان غريباً أن تبدو مصاصة دماء مثيرة إلى هذا الحد. وقبل أن تتغير إشارة السير أخرج محفظته وسحب منها صورة كانت هيلاري قد دستها في يده بعد أن وقّعتها مازحة: (زوجتك، هيلاري) وسجلت عليها رقم هاتفها.

لقد وقّعا عقداً قانونياً يقضي بأن يبقى زواجهما صورياً، كما أوضح له بول أنّ الإخلال بشروط عقد الزواج الصوري، أي إتمام الزواج، سيعرّضه لملاحقة الزوجة التي ستطاله بنفقة باهظة.

لا بدّ أن انجذابه إليها مجرد تخيلات، فما الذي سيجذبه إليها؟

إنها غير مثقفة، فقد تركت المدرسة في السادسة عشرة من عمرها، وهي من أسرة فقيرة عاملة. إنها تعمل في صالون حلاقة! يا إلهي.. حلاقة صغيرة، دائمة الضحك، قصيرة القامة، من دون أي اهتمامات ثقافية أو حنكة اجتماعية. لا يجمع بينهما سوى الجنس البشري. وسمح لنفسه أخيراً بأن ينظر إلى صورتها، مذكّراً نفسه بأنها لم تكن بالغة الجمال. وتملكه السخط وهو يرى نفسه مستغرقاً بشكل يدعو إلى القلق في مثل هذه الأفكار.

رأى أن حاجبيها مستقيمان كثيفان، وأنفها عريض قليلاً. لكن، بالرغم من عيوبها، بقيت عيناه مسمرتين على المرح في عينيها والابتسامة الواسعة المتألقة على فمها الممتلىء المصبوغ بلون التوت.

أفضت إليه ذات مرة من دون أن يسألها: (عندما قابل جدي جدتي، عرفت أنه حب حياتها قبل أن يتحدثا معاً.. على أيّ حال، لم يستطيعا أن يتحدثا معاً لأنها لم تكن تعرف حتى كلمة واحدة من الإنكليزية كما أنه لم يكن يعرف كلمة إيطالية واحدة. ألا تظن هذا شاعرياً؟).

لم يجبها يومها، وصدّ كل محاولاتها لتبادل الغزل معه. فهي ليست من عالمه، وهو أذكى من أن يجازف ويتبع خطوات أبيه وجده فيقع في الغلطة الخطيرة نفسها ويتزوج من فتاة تبحث عن رجل ثري. وهكذا كبح ذلك الانجذاب إلى امرأة يراها غير مناسبة.

ومع ذلك لم يستطع أن ينسى آخر مرة رأى فيها زوجته الزائفة، وتلويحها له بيدها بمرح بالرغم من لمعان الدموع في عينيها، والابتسامة المتمردة على شفتيها التي قالت له إنها ستبحث عن رجل يؤمن بالحب الشاعري.. أتراها لم تعثر بعد على ذلك الرجل؟ وهل هذا هو السبب الذي يدفعها إلى عدم طلب الطلاق؟

وفيما هو غارق في التساؤلات، برزت أمامه طفلة تلاحق كلباً. ضغط على الكابح بشدة، وأدار عجلة القيادة بعنف محاولاً أن يتجنب الطفلة، فاصطدمت السيارة في جدار بعنف بالغ.

كان يمكن لراوول أن يخرج من الحادث من دون ضرر لو سنحت له الفرصة للخروج من سيارته قبل أن تصطدم بها سيارة أخرى. فعندما حدث ذلك، أحسّ بألم بالغ في أسفل رأسه أغرقه في ظلام دامس.

كانت أصابعه لا تزال متشبثة بالصورة حين حملوه بسرعة إلى المستشفى حيث استدعوا بوتيستا التي جلست تنظر باحتقار إلى ممرضتين شابتين كادتا تلتهمان راوول بأعين متلهفة.

كانت امرأة سمراء مدللة متسلطة ترتدي ثياباً لا تناسب امرأة في الستين. وكانت بوتيستا ثائرة لأنهم أفسدوا برنامجها، فعليها أن تسافر إلى ميلانو في الغد لتحضر افتتاح معرض خطيبها، وهي مصممة على ألاّ تغير برنامجها.

منذ عشرة أيام، أثار راوول غضبها عندما أخبرها أن الشاب الوسيم الذي تريد أن تتزوجه، معروف بملاحقة النساء الثريات الكبيرات في السن. لقد أهانها راوول بشكل فظيع. ما الذي يمنع ديتر من أن يرغب فيها لنفسها؟ كانت واثقة من أنها لا تزال حسنة المظهر، ذات شخصية جذابة للغاية. عقدت أربع زيجات انتهى كل

منها بطلاق مكلف، لكنها لم تقلل من إيمانها بالحب والزواج.

وعندما جاء الطبيب أخيراً، وأخبرها بأن راوول يعاني مؤقتاً من فقدان ذاكرة جزئي، تملكها إحباط بالغ.

- هل زوجة السيد ساباتينو قادمة؟

- إنه ليس متزوجاً.

نظر إليها الطبيب مدهوشاً ثم مدّ لها يده بصورة مكرشة قليلاً: «من هذه إذن؟».

تأملت بوتيستا الصورة وما كتب تحتها بذهول. هل راوول متزوج من امرأة إنكليزية؟ يا إلهي!

كان زواجه سيثير زوبعة في الصحف ما سيشعره بالاشمئزاز. ورأت أن تفكيره هذا سليم وقراره صائب. متى كان ينوي أن يخبر أقاربه أنه اتخذ زوجة؟ وتملكها شعور بالسعادة وهي تفكر في أن وجود زوجته سيعفيها من أيّ مسؤولية نحوه أثناء وجوده في المستشفى. واندفعت إلى الهاتف لتتصل بعروس ابن أخيها الغامضة.

ما إن دخلت هيلاري إلى شقتها الصغيرة، ورأت الانزعاج على وجه أختها إيما، حتى انقبض قلبها.

سألتها وهي تلقي جانباً بصحيفة المساء التي أحضرتها معها: «ماذا حدث؟».

- اتصلت امرأة أثناء غيابك. أريدك أن تجلسي قبل أن أحدثك بما أخبرتني به.

كانت إيما فتاة طويلة رشيقة ذات نظرات ثابتة تعكس نضجاً غير عادي بالنسبة إلى فتاة في السابعة عشرة.

قطبت هيلاري حاجبيها: «لا تكوني سخيفة. أنت هنا بسلام،

وليس لي من الأقارب سواك.. من الذي اتصل.. ما الخبر؟

فأجابت أختها بصوت خافت متوتر: «أنا لست كل ما لديك من أقرباء. راوول.. راوول ساباتينو. لقد أصيب في حادث سيارة»

شحب وجه هيلاري، وأخذت تحدق في أختها بذعر وقد وهنت ساقاها: «وهل..؟».

- نعم.. ما زال حياً.

وضعت ذراعها حول كتفيها وجعلتها تجلس على أريكة صغيرة في المطبخ مضيفة: «اتصلت عمة راوول. إن إنكليزيتها ضعيفة للغاية، فلم يستغرق الحديث سوى دقيقتين تقريباً..».

- هل إصابته خطرة؟

راحت هيلاري ترتجف شاعرة بالغثيان، فيما الأفكار المخيفة تملأ ذهنها. وفيما هي تصغي إلى جواب إيما، كانت تدعو الله أن يحمل لها ذلك الجواب بعض الأمل.

- إن لديه إصابة في رأسه. وتكوّن لديّ انطباع بأنها على شيء من الخطورة. لقد نقلوه إلى مستشفى آخر. تنفسي بعمق، يا هيلي. ركزي على حقيقة أن راوول بخير. إنك تعانين من صدمة، ولكن بإمكانك أن تكوني معه غداً صباحاً.

دار رأسها وهي تنطوي على نفسها، راوول حب حياتها السرّي الغالي.. رغم أنها لم تكن بالنسبة إليه سوى وسيلة ساعدته في إنهاء مشكلته. كان غريباً ومفزعاً أن يؤثر فيها الحب بهذا الشكل.

راوول، زوجها الذي لم تستمتع معه حتى بقبلة... راوول الطويل الأسمر القوي البالغ الحيوية، راوول يصارع في هذه اللحظة الموت على سرير في المستشفى. واشتد بها الخوف، ودعت الله أن يشفيه، لكنها لم تستطع أن تتحلّى بالتفاؤل. لقد مضت سبع سنوات

منذ سلب حادث سيارة حياة والديهما فاضطربت حياتهما، هي وإيما. حينذاك، لم يسفر انتظارهما الطويل في المستشفى، عن أي معجزة تشفيهما.

وأخيراً رددت كلمات أختها: «أن أكون معه؟ أكون مع راوول؟!».

أيمكنها أن تسافر إليه؟ هل تجرؤ على المحاولة؟ وتملكها أمل عارم. لعلها زوجته بالإسم فقط، لكن هذا لا يعني أنها لا تستطيع أن تتمنى له الخير. ألم تتصل بها عمته لتخبرها عن حادث السيارة؟ يبدو أن زواجهما لم يكن سراً كما ظنت، ويبدو أيضاً أن أقاربه يعتقدون أن زواجهما هو أكثر من مجرد زواج على ورق.

أجابت إيما تطمئنها: «أعرف أن الوقت مهم وعرفت بالضبط ما الذي ترغبين في فعله. لهذا حجزت لك مقعداً على متن الطائرة التي ستقلع إلى جنيف في الصباح الباكر...».

جاهدت هيلاري لتكبح لهفتها وتتعقّل: «أريد أن أذهب إليه طبعاً، ولكن..».

- ما من (ولكن).

ونهضت إيما واقفة: «إياك أن تمنعك كرامتك من الاندفاع إليه والبقاء معه. أنت زوجته وأراهن على أن ما كان بينكما ذات يوم ما زال قابلاً للإصلاح. إنني كبيرة بما يكفي الآن لكي أقدّر سوء تصرّفي ونتائجه».

فوجئت هيلاري للغاية بهذا الحديث. فحتى هذه اللحظة، لم يكن لديها أيّ فكرة عن أن إيما تلوم نفسها على فشل زواج أختها. فقالت لها: «علاقتي براوول لم تنجح، هذا كل ما في الأمر. لا تظني أن لك أيّ علاقة بذلك».

- كفّي عن محاولات حمايتي. كنت فتاة صغيرة أنانية، فبعد أن فقدنا الأب والأم كنت من التملك إلى حدّ جعلك تخشين حتى السماح لي بمقابلة راوول!

رأت هيلاري أن كل كذبة، حتى لو كانت بيضاء لا ضرر من ورائها، ترتدّ في النهاية على صاحبها. لا يمكنها أن تنظر في عيني أختها الصغرى بعد الآن.

وقالت بضيق: «لم تجر الأمور بيني وبين راوول على هذا الشكل».

- بل كان كذلك. كان اهتمامك منصبّاً عليّ أولاً، وجعلتني أفسد يوم زفافك وأدمّر زواجك حتى قبل أن يبدأ. كنت فظة للغاية بالنسبة إلى راوول، حتى أنني هددت بالهرب من البيت إذا حاولت أن تجعليني أعيش في الغربة. وقفت بينكما.. طبعاً فعلت. كنت تحبينه كثيراً... وما زلت لا أصدق مدى قسوتي نحوك..

كافحت هيلاري لكي تركز أفكارها على المنحى غير المتوقع الذي اتخذه الحديث، فمعظم أفكارها كانت مركزة على حالة راوول الصحية. وأخيراً قررت أن تشرح لأختها حقيقة الموضوع في وقت لاحق، فقالت: «ماذا قالت عمة راوول بالضبط؟».

- قالت إنه كان يسأل عنك.

نطقت إيما بهذه الكذبة البيضاء، داعية الله أن يغفر لها. لكنها كانت تأمل بما يكفي من الثقة كي تسافر إلى حيث زوجها.

أترى راوول كان يسأل عنها حقاً؟ وتملكتها دهشة تبعتها بهجة لا توصف. وفجأة، وجدت نفسها قادرة على مواجهة كافة التحدّيات. يمكنها أن تسير على الجمر لتصل إليه، أن تجتاز البحيرات سباحة، وتتسلق أعلى الجبال لتكون بجانبه. راوول بحاجة إليها! إذا كان

رجل بغرور راوول وثقته بنفسه يطلب حضورها، فهذا يعني أنه مريض للغاية. وتملك هيلاري القلق، وأسرعت إلى غرفتها تحزم أمتعتها.

تأوهت وهي تختار الضروري من ثيابها، ثم هتفت: «لكن صالون الحلاقة.. من الذي سيشرف عليه؟».

- سالي... سالي ويذرستن. عندما مرضت وحلّت مكانك قلت إنها ذكية.

تناولت هيلاري الهاتف. كانت عيناها شاردتين رغم بريقهما، وشعرها الحريري يحيط بوجهها البيضاوي المتألق. كان لونه أشقر فضياً فتجد نفسها غالباً مرغمة على أن تؤكد لزبائنها أن لونه طبيعي. وكانت أحياناً تضع ظلاً خفيفاً من لون آخر على أطرافه، وفي هذا الشهر استعملت لوناً ورودياً باهتاً أنيقاً.

رتبت أمر حصول سالي على مفاتيح الصالون، ثم اتصلت بحلاّقة أخرى اعتادت أن تتردد على الصالون عندما يزيد العمل عن الحد.

تدبرت أمر كل هذه التفاصيل، رافضة حتى التفكير في تكاليف مثل هذه الترتيبات. ونظرت إلى أختها إيما، ثم أجفلت: «كيف أتركك هنا في هذه الشقة وحدك؟».

- فرصتي المدرسية ستنتهي غداً فأستقل القطار عائدة إلى المدرسة. أرجو أن أتمكن من القيام بذلك بنفسي. أنا في السابعة عشرة، يا هيللي.

أحتضنت هيلاري أختها بمحبة بالغة. لم تستطع إلا أن تعجب للتأثير الذي أحدثه راوول في حياتهما، هي وشقيقتها. فتلك الصفقة المالية غيرت حياتهما. إنها مدينة له بدين لن تستطيع إيفاءه أبداً!

منذ أربع سنوات، كانت الشقيقتان تعيشان في شقة حقيرة معتمة

قذرة. وكانت إيما ذكية ماهرة ما جعل هيلاري تقرر ألاّ تدع مأساة فقدان والديهما تمنع الفتاة الصغيرة من متابعة تعليمها. حينذاك، أحست هيلاري بالفشل عندما اختلطت أختها الصغرى بمجموعة من الفتيان سيئة السمعة ومن ثم أخذت تتغيب عن المدرسة. حينذاك، كانت هيلاري. تعمل لساعات طويلة، ولم يكن وضعها يسمح لها بالانتقال إلى منطقة أفضل، أو بقضاء وقت أطول في الإشراف على مراهقة متمردة.

لكن سخاء راوول قلب حياتهما رأساً على عقب. لم تشأ في البداية أن تقبل نقوده، لكنها عادت فأدركت أن تلك النقود ستمنحها فرصة تعيد بها أختها إلى الصراط المستقيم. فأنفقت منها على إنشاء صالونها الخاص بعيداً عن ضاحية «هونسلو» في لندن، وذلك من أجل مصلحة إيما. كانت تعتقد أنها قامت بالأمر الصواب. لكنها تتساءل أحياناً عما إذا كان راوول ليحترمها أكثر أو حتى يبقى على اتصال بها لو أصرّت على رفضها لنقوده وعلى مساعدته من دون مقابل.

على أيّ حال، اختارت أن تتزوجه من باب المساعدة ليس إلاّ. كانت متلهفة للقيام بأي شيء يرضيه، وهو الذي لم يكن يعلم، من قبل، بوجودها في هذه الحياة. لكن المحزن هو أنها ما إن استسلمت لإغراء المال وسمحت لنفسها بأن تقبله منه لتحل مشاكلها، حتى غيّرت كل ما بينهما.

حينذاك، قال لها بلهجة مطاطة: «أحب أن أدفع أجر كل خدمة تقدّم لي، فأتجنّب أي سوء تفاهم».

وتملكها الفزع إذ جعلها تشعر وكأنها صيادة رجال.

* * *

وفي اليوم التالي، حاول الدكتور ليرذر أن يكتم دهشته عندما أشارت سكرتيرته إلى زوجة راوول ساباتينو، بالدخول. فالمرأة الشقراء، الصغيرة الحجم، ذات العينين الزرقاوين الواسعتين المليئتين باللهفة لم تكن ما توقعه أبداً.

قالت هيلاري بسرعة: «حاولت أن أتصل قبل أن أغادر إنكلترا، لكن موظف الهاتف لم يستطع أن يعثر على رقم هذا المكان».

كانت متوترة الأعصاب، فهذا المستشفى لا يشبه برفاهيته أي مستشفى آخر دخلته من قبل. وقوبلت أسئلتها المتلهفة عن حال راوول بصمت مهذب. وشعرت بالإحباط لأن عمة راوول، بوتيستا، ليست بانتظارهما لتحييها وتيسّر طريقها ما اضطرها إلى تقديم نفسها بصفتها زوجة راوول ساباتينو. عندما فعلت ذلك، تملكها شعور بأنها كاذبة لكنها كانت مقتنعة بأنها إذا قالت الحقيقة عن زواجهما فلن يُسمح لها بالدخول لرؤية راوول.

مد الرجل الشائب يده يصافحها: «هذا مستشفى خاص، ومرضانا يطلبون التكتم والأمان، لهذا لا يسمح بالزيارات. لقد شعرت بالارتياح لحضورك بهذه السرعة».

ولاحت لها الكآبة خلف هذا التطمين فشحب وجهها وشهقت: «راوول؟».

- آسف. لم أقصد أن أثير قلقك. فعدا عن صداع شديد، لا يعاني زوجك سوى من رضوض بسيطة.

وبابتسامة لطيفه أجلسها الطبيب على مقعد: «لكن ذاكرته لم تكن محظوظة إلى هذا الحد».

تبددت أسوأ مخاوفها وغاصت هيلاري في مقعدها الكبير وقد بدت عليها الحيرة: «هل هي... ذاكرته؟».

- تلقى السيد ساباتينو ضربة قوية على رأسه فغاب عن الوعي لساعات. فقدان الإحساس بالزمان والمكان بعد حادث كهذا، ليس أمراً غير عادي... لكن، ولسوء الحظ، يبدو أن ضعفاً مؤقتاً أصاب الذاكرة.

تنبهت إلى لهجة الرجل البالغ الرزانة. فسألته وقد جف فمها: «المعنى؟».

- لقد خضع لفحص بعد استيقاظه من غيبوبته فكشف عن اختلاط التواريخ في ذهنه.

- التواريخ؟؟

- ذاكرة راوول مسحت السنوات الخمس الماضية من حياته. وهو نفسه، لم ينتبه إلى وجود مشكلة، حتى أشرت أنا إلى ذلك. إنه يتذكر كل ما مرّ عليه من ماضيه، لكن الأحداث التي عاشها هذه السنوات الخمس هي كتاب مغلق بالنسبة إليه.

نظرت هيلاري إليه غير مصدقة: «كل تلك... السنوات الخمس؟ هل أنت واثق من ذلك؟».

- طبعاً كما أن السيد ساباتينو لا يتذكر حادث اصطدام سيارته.

- ولكن لماذا حدث له هذا؟

- ليس مستغرباً أن يعاني الشخص من فقدان جزئي للذاكرة بعد حادث يصيب الرأس، ولكن هذه الحالة تدوم لفترة قصيرة فقط وتدعى «فقدان الذاكرة المتقهقر». أحياناً يعود السبب إلى صدمات عاطفية أو كآبة، لكنني استبعد ذلك في هذه الحالة بالذات. إنها حالة مؤقتة بكل تأكيد، وربما سيتذكر كل ما نسيه. ربما سيتذكر كل شيء دفعة واحدة.

فسألته بضعف: «وكيف يتقبل راوول ذلك؟».

- عندما يدرك زوجك كم من الوقت أغفلت ذاكرته، سيصاب بصدمة بالغة.

- أنا واثقة من ذلك.

أضاف الطبيب بأسف: «قبل أن نكتشف هذا، كان السيد ساباتينو على وشك أن يعود إلى مكتبه متجاهلاً نصائح الأطباء. في الواقع، هذا الوضع يمثل تحدياً محبطاً لا يمكن قبوله بالنسبة إلى رجل مثقف قوي الشخصية اعتاد السيطرة».

ارتسم الذعر على ملامح هيلاري المعبّرة وهي تفكر في غياب السنوات الخمس التي اختار الطبيب أن يصفها ببساطة: اختلاط التواريخ في ذهنه.

وقالت بلهفة: «بالله عليك.. حتى راوول لن يتذكرني!».

- كنت سأصل إلى هذه النقطة. لكنني مسرور جداً بوجودك هنا لكي تمنحي السيد ساباتينو العون الذي يحتاجه لمواجهة هذا الوضع..

فرفعت حاجبيها: «ولكن أليست عمة راوول هنا، هي أيضاً؟».

- علمت أن السيدة غادرت البلاد هذا الصباح لحضور مناسبة اجتماعية.

تملكها الذهول، وغصت بريقها ولم تعرف بماذا تصف العمة بوتيستا. ودار رأسها وقد اختلطت المشاعر في داخلها. لقد اطمأنت في البداية إلى عدم خطورة حالة راوول، لكن علمها بفقدانه لذاكرته جعلها تشعر بالعجز. وحاولت أن تتخيّل نفسها تستيقظ لتجد نفسها كما كانت منذ خمس سنوات وليست كما هي الآن، بمزيد من القلق لما ستؤول إليه حال راوول من التشتت والاضطراب.

وتملكها الاشمئزاز لموقف عمته غير المكترث، لكنها لم تدهش

لأنها عاشت هي وأختها هذه المأساة مع قريبة لهما. وفكرت في الدين الذي تشعر بأنها مدينة به لراوول، وبمقدار رغبتها في رؤيته. يمكنها أن تساعده وتسنده. كانت هذه فكرة طبيعية مثيرة، ولكن ألن يكون تصرفها كزوجة حقيقية نوعاً من الخداع؟ إنها زوجة على الورق ليس إلاّ.

وتملكتها موجة من الشعور بالعار والاشمئزاز. على أيّ حال، لقد وعدت راوول بألاّ تكشف أبداً عن شروط زواجهما لأيّ كان. لكن، ولكي تريح ضميرها، قررت أن تكشف نصف الحقيقة، فقالت بارتباك: «عليّ أن أعترف بأننا.. أنا وراوول كنا.. متباعدين!».

- أشكرك على ثقتك بي وأطمئنك إلى أن ما أخبرتني به لن يعرفه أحد. لكنني أطلب منك ألاّ تكشفي عن أي شيء قد يضايق مريضي. فما يعانيه زوجك من توتر بالغ يمكن أن يشكّل خطراً على شفائه التام.

شحب وجهها وهي تسمع هذه الحقيقة القاسية، ثم أومأت بلهفة تظهر تفهمها. لن يعلم راوول منها ما قد يكدره.

- بصفتك زوجة السيد ساباتينو، أنت أقرب الناس إليه ما يمكّنك من أن تساعديه أكثر من أي شخص آخر. إن عدد موظفيه الذين يمتثلون لرغبته لا يحصى، لكن وضعك ولحسن الحظ، أفضل بكثير. زوجك بحاجة إلى أن يشعر بأن لديه شخصاً يمكنه أن يثق به. إياك أن تسيئي التصرّف فحالته الحاضرة جعلته لا يحتمل شيئاً.

- لا أستطيع أن أتصور راوول عاجزاً..

وغصت بدمعها ولم تستطع أن تواجه نظرات الطبيب الرقيقة. كانت تشعر بألم بالغ لأنها هي أيضاً أصبحت من تلك الفئة الحقيرة بعد أن دفع راوول لها ذات يوم أجراً لتنفذ ما يريده. لكنه في الواقع

لم يجد سواها لتنفيذ هذا الدور، وهذه الحقيقة دمّرتها.

- اسمعي، إنّ مسؤوليتك تقضي بأن تقفي بينه وبين موظفيه الذين يرغبون في رؤيته. «مصرف ساباتينا» يجب أن يدار من دونه حالياً، فهو بحاجة إلى راحة. إنني على اطلاع تام على عالم الأسواق المالية ما يجعلني أدرك أن أيّ إشارة إلى حالة السيد ساباتينو يجب ألاّ تتجاوز جدران هذه الغرفة.

قطبت هيلاري إذ ليس لديها حتى شبه اطلاع على أحوال الأسواق المالية. وهي لا تفهم شيئاً من هذا الجانب من حياة راوول كما أن اهتمامها بهذا الأمر محدود للغاية. ومع ذلك، استوعبت ما يبدو أنه دورها. إن واجبها هو أن ترعى راوول حتى يستعيد ذاكرته.

- هل يمكنني أن أراه الآن؟

تذكر الطبيب الرعب الذي بدا على ملامح مريضه عندما اكتشف أنه متزوج، لكنه سرعان ما نبذ هذه الصورة من ذهنه. لعل هيلاري ستتمكن من الوقوف بحزم في وجه برودة زوجها البليونير وشخصيته المستبدة.. لكن حتى لو كان الدكتور ليرذر مغامراً.. فهو لا يجرؤ على المراهنة على النتيجة.

أخذت هيلاري نفساً عميقاً ثم تبعت الممرضة. بعد دقائق سترى الرجل الوحيد الذي استطاع أن يجعلها تبكي...

٢ - علاقة سرية

زوجة...

أخذ راوول يفكر في ذلك مكتئباً.

فبالرغم من أنه في الثلاثينات من عمره، إلا أنه يبدو وكأنه ضحى بحريته، كما فعل أبوه وجده من قبل... تزوج فتاة صغيرة، رغم أنه أقسم ألاّ يرتكب الغلطة نفسها.

لم تستطع الشهوة أن تسيطر عليه قط، كما أنه لم يؤمن بالحب يوماً. لذا لا بدّ أنه لم يكن للحب علاقة بتغير موقفه من الزواج. فثمة أمور لا يحتاج إلى ذاكرة لكي يعرفها، أمور يدركها بالغريزة. الزوجة، التي اختار عقله المشوّش أن ينساها، يجب أن تكون طويلة، رشيقة، سمراء فهذا هو نوع النساء الذي يجذبه. ويجب أن تكون من أسرة غنية لا تشوب سمعتها شائبة. يمكن أن تكون موظفة، مدبرة بنك أو حتى خبيرة اقتصادية، عسى أن يوفّر له هذا بعض الراحة. لعله أثناء مناقشة بعض خطط الاستثمار، أدرك أنه عثر على شريكة عمره. امرأة هادئة غير انفعالية تحترم عمله عندما يشغله عن رؤيتها.

سمع نقراً على الباب، فالتفت من حيث يقف عند النافذة، بطوله الفارع، وكتفيه العريضتين وبذلته البالغة الأناقة. وسمع صوتاً يقول بلهجة إنكليزية: «هلاّ أغمضت عينيك قبل أن أدخل؟ إذا لم تفعل، فقد أشعر بالحماقة حين أعرّفك بنفسي على أني زوجتك».

الصدمة الأولى.. هي أنه متزوج من أجنبية ذات لهجة إنكليزية عامية بدلاً من أن تكون لهجة تنم عن طبقتها الراقية. الصدمة الثانية.. هي أنها تستعمل لهجة المراهقين وتتطلب أشياء طفولية.

وفي الصمت المتوتر، ارتفع صوتها بإلحاح: «راوول؟».

أطبق راوول أسنانه بفروغ صبر. أمامه خياران.. إما أن يطردها عن الباب قبل أن تدخل، وإما أن يدعها تدخل ليعرف بالضبط من هي.

- لا بأس...

- أظنك متوتراً أنت أيضاً. ولكن، بما أنني هنا، ليس عليك أن تقلق بعد الآن.

أدار ظهره للباب وقد التمعت عيناه السوداوان بعدم تصديق، فيما أخذ يتنفس بعنف وبشكل متواصل. الصدمة الثالثة.. أنه متزوج من امرأة استطاعت أن تثير عداءه وتجرح شعوره بمعاملتها له بعدم احترام، وذلك خلال دقيقة واحدة.

قالت وهي تدخل بسرعة وتغلق الباب خلفها: «لقد تأثرت تماماً لسؤالك عني في المستشفى..».

سألها غير مصدق: «أنا سألت عنك؟ وكيف أسأل عنك بينما أنا لا أتذكرك؟».

سألته بذهول، ناسية ما كانا يتحدثان عنه: «يا إلهي! ماذا تفعل خارج السرير؟».

استدار بعنف يواجهها وهو يقول ساخراً: «أخبريني، هل لديك قائمة تعليقات سخيفة، أم أنها تخطر في بالك من دون جهد؟».

حجم راوول وحده كان ينذر بالخطر وهو يقف منتصباً على مسافة قريبة منها. كان عليها أن ترفع رأسها لكي تراه جيداً، ورغم

أنها أجفلت لكلامه هذا، إلا أنها لم تستطع تحويل نظراتها عنه، بل جف فمها وتسارعت دقات قلبها أمام ذلك الواقف أمامها مجسداً رغباتها وأحلامها.

جمال الرجولة في ملامحه السمراء أدار رأسها. كان وسيماً إلى حد لا يصدّق، وجذاباً بشكل صاعق. لكنه أيضاً ذو شخصية مغناطيسية مسيطرة باردة. لم يبتسم، ولم يدهشها هذا، فابتسامته الحساسة نادرة. وفهمت هي.. فهمت حتى تهجمه عليها.

اعتصر قلبها بتسامح المحب. ما كان ليقرّ بالحقيقة حتى تحت التعذيب، لكنها تعلم أنه يشعر بخوف لم يعرفه في حياته.

قالت له: «لا أحب السخرية».

- وأنا لا أحب الأسئلة السخيفة.

لقد اكتشف أن عليه أن يخفض بصره لكي تصبح زوجته على مرمى نظره. كانت صغيرة الحجم ولكن ليس إلى حد أن تشبه الدمية. بدت في أوائل العشرين من العمر ذات شخصية مميزة، كما لاحظ مستسلماً رغماً عنه لشعور بالامتنان. كان لون عينيها أشبه بلون بحر هائج وشعرها الأشقر يميل إلى الفضي، وقد صبغت أطرافه بلون وردي. وردي؟ لا بد أن الضوء يخدعه. ولاحظ بعض النمش على أنفها وحمرة شفتيها الأشبه بلون الكرز ما يجعل الناسك يتملكه الإغراء.

أدهشه التوتر الذي تملكه فقد تجاوز عهد المراهقة منذ زمن طويل! حين اعتاد جسده التحكم في مشاعره. لكن عندما أخذت نظراته تتأمل القميص المقفل الأزرق الذي ارتدته مع الجينز المحكم على وركيها والذي أبرز مفاتنها الأنثوية. وعندما أخذ عقله يكافح ليقر بالصدمة الرابعة بعد رؤية زوجته، وهي صدمة أناقتها الرخيصة،

كانت هرموناته قد انتصرت بسهولة. لعله لا يتذكرها، لكن الرغبة التي أشعلتها في جسده أشد تأثيراً من الذاكرة أو الكلمات. اعتاد راوول أن يفسّر ما يتعذر تفسيره، وهو يشعر الآن بالرضى لإدراكه سبب زواجه منها.

واشتبكت عيناها بالعينين القاتمتين الذهبيتين، فقالت: «أظن أن عليك أن تكون في سريرك الآن».

- هل من عادتك أن تخبريني بما عليّ أن أفعله؟

طرح سؤاله هذا في محاولة لتحذيرها، لكن نبرته انتهت بشكل أجش غريب.

- وما رأيك أنت؟

وما إن قابلت نظراته المذهلة حتى جف فمها وأخذ قلبها يخفق. حاولت جهدها أن تملأ رئتيها بالهواء ولكن عبثاً. كانت تعلم بالضبط ما يحدث لها، إلاّ أنها لم تستطع منع ذلك فهذا هو الرجل الذي أفقدها صوابها. كان شوقها ولهفتها إليه عارمين.

وتمكّن بفضل قوة إرادته من أن يحوّل نظراته عنها. لقد فهم، على الأقل لماذا تزوج امرأة تفتقر إلى الأناقة. إنها شهوة.. شهوة من دون تفكير، شهوة عنيفة هائجة. وتوتر فمه الجميل.

تمتم ببرودة: «المرأة التي تملي عليّ ما أفعله حمقاء. وأنا واثق من أنك لست من تلك الفئة».

قالت بعناد وقد توهج وجهها فيما تصلّب ظهرهاوهي تستعين بكل ذرة من كرامتها لكي تترفّع عن ضعفها المذل: «لكنني أيضاً لا أخاف بسهولة. بعد ما حدث لك، عليك أن تلزم السرير».

فقطب حاجبيه الجميلين: «لست بحاجة إلى مزيد من العناية الطبية. آسف إذا ما أثرت قلقك لكنني عائد إلى مكتبي».

www.elromancia.com

فتحت عينيها على اتساعهما: «لا أظنك جاداً».

- بما أنني كذلك غالباً، لا أدري لماذا تظنينني غير جاد، أو تعتقدين أن من الممكن أن أحتاج إلى رأيك في هذا الموضوع!

فأجابته بغضب: «حسناً، ومع ذلك سأعطيك رأيي أعجبك أم لا. لعلك تظن أن الخيار خيارك فتتصرف وكأنك لا تعاني من شيء، لكنني أظن هذا حماقة بالغة منك».

التمعت عيناه غضباً: «أنا...».

- إنك تعاني من فقدان للذاكرة، ولا تفكر جيداً في ما تقوم به..

فرفع رأسه بكبرياء: «أنا لا أتصرف أبداً من دون تفكير...».

- بذهابك إلى العمل، تنكر أن لديك مشكلة. لا أستطيع أن أدعك تفعل ذلك.

فقال ساخراً: «أخبريني.. هل كنا، قبل حادث السيارة، سائرين في معاملات الطلاق؟».

- لا أعرف شيئاً عن هذا!

ووضعت يديها على خاصرتيها فيما التمعت عيناها الزرقاوان عزماً وأردفت: «قد تكون رجلاً شديد الكفاءة. لكن يمكنك أيضاً أن تكون بالغ العناد وغير عملي أبداً. حالياً، من واجبي، أن أمنعك من القيام بما قد تندم عليه لاحقاً. لذا، عد إلى سريرك.

أخذ يتأملها بعينين لامعتين زادتهما أهدابه السوداء سحراً، وكأنها مجنونة بحاجة إلى من يسيطر عليها: «لا أحد يجرؤ على أن يخبرني بما عليّ أن أفعله.. ويدهشني أن تظني أن لديك الحق في أن تفرضي رأيك عليّ».

- لن أعتذر عن حمايتك من نفسك. إذا عدت إلى المصرف،

فسيدرك موظفوك أن ثمة خطب ما.

- لم يحدث لي شيء، إنه مجرد تشتت ذهنيّ بسيط ومؤقت..

فقالت بحرارة: «لكنك نسيت أموراً غاية في الأهمية من حياتك الماضية.. أظن أن هذا أمر بالغ الأهمية، وأكثر خطورة مما تريد أن تعترف. لن تتمكن من أن تتذكر بعض العملاء والموظفين. ستكون متأخراً عن عملك الغالي خمس سنوات. من ذا الذي تجعله موضع ثقتك فتأخذه معك لتتجنب ارتكاب أخطاء محرجة؟ ثمة أمر واحد أعرفه عنك، يا راوول، وهو أن الشخص الوحيد الذي تثق به هو نفسك!».

قوة مشاعرها جعلتها ترتجف لكنها حدقت فيه متحدية. وسرعان ما تغيّرت ملامحها عاكسة القلق حين رأته يعبس وكأنه يتألم. عندئذ فقط لاحظت شحوب وجهه البالغ والرجفة الخفيفة في يده وهو يرفعها إلى رأسه.

وضعت يدها على يده تدفعه بلطف للجلوس على المقعد قائلة: «إجلس..»

قاوم محاولتها كي تساعده: «لكنني لست بحاجة...».

قالت غاضبة وهي تدفعه للجلوس: «إخرس واجلس».

تأوه بإحباط: «إنه مجرد صداع».

لكنها كانت قد قرعت الجرس لتستدعي الممرضة التي سرعان ما حضرت يتبعها الطبيب ما منع راوول من أن يظهر غضبه لتدخلها في شؤونه.

على أيّ حال، أدرك أن زوجته يتملكها الذعر، إذ بدا هذا جلياً على وجهها الذي يعكس أفكارها بوضوح.

كانت عيناها مظلمتين من التوتر وهي تقف بتواضع في آخر

www.elromancia.com

الغرفة مبالغة في احترام الأوامر الطبية، بينما راحت تقضم أظافرها قلقاً.

لم يستطع أن يحوّل انتباهه عن زوجته هذه التي تقضم أظافرها. كانت ترتجف وقد بدا عليها الخوف الشديد عليه.

لعل الاهتمام بصحته هو ما جعلها تصرخ في وجهه. يبدو أنها مولعة به، لكنها قد تكون أكثر ولعاً بثروته الضخمة وكل ما استطاع أن يشتريه لها. يبدو فعلاً أنها مولعة به. كان يعلم أن النساء ممثلات بارعات، ولكن عشيقاته اللاتي يتذكرهن يفضّلن التعذيب على قضم أظافرهن.

كما أن زوجته ليست واضحة الشخصية كما اظنها في البداية. فخلف هذا الظرف والمفاتن الأنثوية يكمن تمرد ونار. كان معتاداً على نساء لا يرفضن له أي طلب ويحاولن جاهدات إرضاءه. لم يقابل قط امرأة لديها ما يكفي من الجرأة بحيث تصيح في وجهه، أو تخاصمه. في الواقع، لم يكن يتجادل مع أحد... أبداً! لم يكن يوماً بحاجة إلى ذلك.

تملك هيلاري شعور بالذنب والاضطراب، فراوول ما زال يعاني من آثار الصدمة وقد فقدت أعصابها وصرخت في وجهه. كيف أمكنها أن تفعل ذلك؟ إنها، في العادة، هادئة الطباع، سهلة المعشر... فما الذي حدث لها؟ فبدلاً من الهدوء والإقناع والصبر، أظهرت حدة وهيجاناً وراحت تكيل له التهم من دون تبصّر. وقد فوجىء بذلك. بدا غير معتاد على أن يصيح الناس في وجهه، ولم تصدق أنها فعلت ذلك.

حبست أنفاسها وأخذت تتأمله... وخفق قلبها. كان شعره الأسود الكث مشعثاً، وجانب وجهه متوتراً، وأهدابه السوداء تظلل

وجنتيه السمراوين. كانت وسامته غير عادية، ورجولته تدير رؤوس النساء أينما ذهب. ما زال يحبس أنفاسها تماماً كما حدث حين رأته أول مرة منذ أربع سنوات تقريباً.

دخل راوول من باب صالون الحلاقة وهو يتحدث في هاتفه الخليوي. كان الصالون مزدحماً فوقف جامداً، رافعاً حاجبيه الأسودين بدهشة خفيفة وهو يستوعب ما حوله. وفهمت هي ما حصل على الفور... لقد أخطأ كبعض الزبائن من قبله، ودخل ظناً منه أنه ذلك الصالون الخاص الذي يبعد عنهم أمتاراً عدة فقط في الشارع نفسه. وفي تلك اللحظة، وفيما كان يوشك أن يستدير على عقبيه ليخرج، دفعها شيء إلى الأمام. شيء؟ وسامته المذهلة جعلتها تتحرك. كيف يمكنها أن تصف مدى لهفتها إلى أن تمنعه من الخروج من حياتها ببساطة؟

اقترحت وهي تقطع الطريق عليه، معتمدة على رفض الذكر الغريزي للاعتراف بالخطأ: «تابع حديثك، وأنا سأهتم بشعرك».

ألقى عليها نظرة حائرة أعلمتها أنه لم يرها حقاً، وأنه مهتم بحديثه أكثر من اهتمامه بها. توقعت أن يتغير ذلك عندما أخذت تُعمل مقصها في شعره. كانت تعلم أن الرجال الوسيمين يحرصون على أن تكون تسريحة شعرهم ممتازة لكن راوول قال لها بفروغ صبر: «إفعلي ما يفترض بك فعله».

وعندما طلبت منه أن يعلمها بما يريد، نظر إليها غير مصدّق: «لكن المسألة مجرد قصة شعر، وهذا ليس بالأمر الهام».

ملامستها لشعره الكث الأسود ملأتها بهجة. وعندما دفع الأجر، دعته أن يعود مرة أخرى. وكان قد خرج لتوّه عندما لاحظت وفرة الأوراق المالية التي وضعها على المكتب، فظنت أنها سقطت من

يده على حين غفلة، وهرعت خلفه إلى الشارع. عندما حاولت أن تعيد إليه النقود، قال: «إنها بخشيش».

وحدّق إليها من عليائه، وقد توقفت خلفه سيارة ليموزين بطول القطار نزل منها سائق خاص بملابس رسمية واستدار يفتح له الباب.

تمتمت وقد أذهلها مظهر السيارة الفخم «البخشيش». غير العادي: «ولكن هذا كثير...».

لكنه هزّ كتفيه بحركة أرستقراطية وهو يتوارى داخل سيارته.

عادت هيلاري إلى أرض الواقع لتجد أن راوول استعاد لونه الطبيعي فبدا على ما يرام.

سألته وهي تراه يضع الهاتف الذي كان يستعمله: «هل عليك أن تبقى واقفاً؟».

فأجاب متجاهلاً سؤالها: «إننا ذاهبان إلى بيتنا».

نظرت هيلاري إلى الطبيب بفزع تلتمس العون منه: «دكتور ليرذر؟».

فقال الطبيب بابتسامة فاترة: «لا أرى سبباً يجعل زوجك يبقى في المستشفى».

وقال راوول بثقة تامة: «المشكلة الأخرى ستتلاشى».

إننا ذاهبان إلى بيتنا؟ يا إلهي! أين هو البيت؟

تبعت هيلاري راوول إلى المصعد.

سألها بجفاء: «أين كنت عندما تعرّضت للحادث أمس؟».

- في لندن.. حيث... لدي عمل هناك.

تكلمت بنبرة خافتة وهي تتساءل بفزع عما عليها أن تفعله أو تقوله بعد هذا إذ لم تخطط لما عليها أن تفعله.

كانت الليموزين تقف أمام المستشفى، فصعدت إلى المقعد

الخلفي حيث غاصت في الجلد الوثير.

سألها برقة: «منذ متى تزوجنا؟».

تنفست بعمق وقالت من دون أن تنظر إليه: «من الأفضل ألاّ أدفعك لتفهم الحقائق...».

فمد يده ليمسك بيدها: «أريد أن أعرف كل شيء...».

أجفلت للسهولة التي لمسها بها، ولم تستطع أن تمنع أصابعها من الارتجاف: «قال الدكتور إن إطلاعك على أمور لست بحاجة لأن تعرفها سيزيد الأمور تعقيداً..».

فقال من دون تردد: «دعيني أقرر ذلك بنفسي».

- أظن أنّ الدكتور يعرف مصلحتك جيداً، ولا أريد أن أجازف.

- كلام فارغ.

قالت له مواسية: «بعد بضعة أيام ستتذكر كل ما مضى، وهذا أفضل بكثير».

وفي لهفتها لإقناعه بأن الصبر أفضل، تجرأت أخيراً على أن ترفع بصرها إليه وقد جف فمها وأخذ قلبها يخفق بشدة.

- في هذه المدة القصيرة؟

دغدغت أعصابها لكنته اللذيذة، كما سرت الكهرباء في نظراته المقيّمة، وتعطّل ذهنها.

وكررت كلامه كالببغاء: «في هذه المدة القصيرة؟».

قال بضحكة خافتة: «نحن. ما الذي عليّ أن أفعله مع زوجة نسيتها؟».

احمر وجهها وأخذت تحدق إليه بعينين بلون سماء الشتاء.

قالت متلعثمة وهي تجاهد لتكبح الحرج الذي تملكها لقربه منها: «ليس عليك أن تفعل شيئاً. عليك فقط أن تثق برعايتها لك».

لماذا تتلقف كل كلمة يلفظها كتلميذة هجرها حبيبها، فاغرة فمها كجمهور مفتون؟ غاظها ضعفها هذا. إن دورها يقضي بأن تكون صديقة تساعده ليس إلاّ لكن البهجة التي تملكتها لانفرادها براوول سلبت عقلها كما يبدو.

- رعايتها لي؟

وتأملها من تحت أهدابه. هل تخطط لرعايته؟ لم يسمع في حياته قط كلاماً أكثر سخافة وسذاجة. إلاّ أنه لم يعلّق وهو يرى الإخلاص والنوايا الطيبة تنطبع على وجهها.

- هذا سبب وجودي هنا...

وسكتت لا تجد القدرة على المتابعة، فقربه منها، والثقة العفوية التي لمستها منه، أدارا رأسها.

وفيما هي تتكلم، رفع يده يلامس شفتها السفلى الممتلئة الناعمة الوردية، فلم ينفع ذلك في تبريد حرارتها. في الواقع، راحت تميل نحوه لتزداد اقتراباً منه بدون وعي منها.

تمتم بصوت أبح: «أنت ترتجفين. ولكن لماذا لا؟ فهذا وضع مثير».

همست مقتنعة بأنها لم تسمعه جيداً: «ماذا قلت..؟».

فقال ناظراً إليها بعينين لامعتين: «زوجة نسيتها. امرأة لا بد أني شاركتها الفراش مرات عديدة، لكنها تبدو لي في هذه اللحظة غريبة تماماً عني. إنها علاقة غرامية سرية، يا عزيزتي. كيف يمكن أن تكون خلاف ذلك؟».

٣ - أتذكر اسمي؟

سال العرق على عنق هيلاري، علاقة غرامية سرية؟ وتململت في جلستها، (امرأة لا بد أنه شاركها الفراش مرات كثيرة؟». من الطبيعي أن يفترض هذا، إذ لن يخطر في باله أن زواجهما ليس طبيعياً. تمتمت بارتباك، محاولة ألاّ تفضح عدم ارتياحها: «إنك تنظر إلى الأمور بشكل غير مألوف».

- إن وجهك يحمر خجلاً كفتاة مراهقة.

قالت بحدة لشكه في سبب احمرار وجهها: «معك فقط».

أثناء المراهقة، جعلتها سرعة احمرار وجهها إذا ما تعرضت للإحراج، عرضة لكثير من الإحراج في المدرسة. قال وهو يحتضنها بذراعيه: «لا يمكن أن نكون قد تزوجّنا مدة طويلة».

فصرخت: «لا تفعل!».

ارتسمت على وجهه الوسيم ابتسامة عريضة. فرغم أنها ليست أكبر حجماً من الدمية بكثير، إلا أن شخصيتها ديكتاتورية مستبدة.

- لا تخافي. لا أظن أنّ ثقيل زوجتي سيعيدني إلى المستشفى.

سألته وهي ترتجف، مرجعة رأسها إلى الوراء.. رغم رغبتها في أن تلقي بنفسها عليه: «وما أدراك؟ ربما ينبغي عليك ألاّ تعانقني».

قال مداعباً وهو يرى القلق في عيني زوجته: «هذه ليست مشكلة».

وزاد من شعوره بالتسلية رؤيته لخوفها على صحته، فيما تابع

يقول: «اعتبري هذا اختباراً مفيداً لعله يعيد لي ذاكرتي، يا جميلتي».

- راوول...

لكن اللهفة راحت تزداد في داخلها بسرعة خبيثة. لم تشأ أن تمنعه. كما لم تجد لديها ما يكفي من الإرادة لتمنعه. كانت متلهفة لتجربة ما حرمت منه.

تغلغلت أصابعه في شعرها، وأرجع رأسها إلى الخلف ليتحكم في عناقها. مالت إلى الخلف بين ذراعيه القويتين، وتسارع نبضها، وكاد جسدها يحترق.

وفجأة تركها راوول متمتماً: «لقد وصلنا إلى البيت».

أحنت رأسها وقد انقطعت أنفاسها، وحاولت أن تتحكم في نفسها بعد أن تملكها الألم لخيبة أملها. وشعرت بالخجل من نفسها لتشجيعها له، وتساءلت إن كان بإمكانها أن تنظر إلى وجهه مجدداً. ما الذي تفعله؟ لقد تقبلها من دون إثبات لمجرد أنه وثق بكلامها. ولتستحق هذه الثقة عليها أن تبقى بعيدة عنه. وعندما فتح السائق الباب بجانبها ترجّلت من السيارة بسرعة، ثم أخذت تنظر حولها.

البيت؟ يبدو أن راوول يعيش في منزل فخم أشبه بالقصر، في مكان معزول تحيط به أسوار عالية. رأت خادماً في منتصف العمر يقف بجانب مدخل فخم، وردهة فسيحة تزيّنها تماثيل أثرية، وأثاث ذهبي وأرض رخامية. تملكتها الرهبة إزاء هذه الفخامة وترنحت خطواتها.

- يا إلهي..

هتاف راوول الخشن هذا جعل هيلاري تستدير على عقبيها. رأته يحدّق في لوحة فوق مدفأة رخامية جميلة فأدركت ما جرى بسرعة.

ثمة ما أدهش راوول... شيئاً بدا له مختلفاً أو على الأقل مغايراً لما توقعه. وبما أنه ليس لديه فكرة عن التغيير الذي حصل، فلا بدّ أنه سيشعر بالتشوش.

وعندما رأت الخادم يرمقه خفية، سارعت إليه تمسك بذراعه هامسة: «دعنا نصعد إلى الطابق العلوي».

وفيما هو يتساءل عن السبب الذي جعل إحدى لوحات جده المفضلة تنتقل إلى بيته في المدينة، إذا به يستجيب لتلك الدعوة الأنثوية الخافتة كما قد يفعل أي رجل. وسرعان ما نسي لغز اللوحة بعد أن أجفل لرغبته في أن يرفع زوجته الصغيرة بين ذراعيه.

اعتاد أن يتصرف على هذا النحو وشعر بصدمة قوية وهو يدرك أن ليس لديه فكرة.

- لقد تذكرت أمراً ما لتوّي. اصعد أنت أمامي..

تركت ذراعه حين وصلا إلى فسحة السلم، وعادت إلى الخادم قبل أن يتوارى عن الأنظار. قالت له بضيق: «أنا واثقة من أنك تتساءل عمن أكون. ما اسمك؟».

- اسمي أمبرتو يا سيدتي. إنني أدير المنزل وأنت ضيفة السيد ساباتينو.

قالت بنبرة خافتة: «في الحقيقة أنا لست ضيفة بل.. أنا.. زوجة راوول.. هيلاري».

ورغم تهذيب أمبرتو، إلاّ أنه لم يستطع إخفاء دهشته، بينما تابعت هي تقول: «أرجو أن تحرص على عدم تحويل أي مكالمة هاتفية، سواء أكانت مهنية أو شخصية إلى زوجي».

تصلّب جسم أمبرتو، وانفرجت شفتاه بقلق، فأضافت: «لا تتجاهل تعليماتي».

عندما انضمت إلى راوول، نظر إليها مقيّماً، ثم انحنى وحملها بين ذراعيه.

فوجئت بتصرفه هذا فهتفت: «راوول.. ما الذي تفعله؟».

أطلق ضحكة رنانة وهو يسير بها نحو باب غرفته الذي دفعه بكتفه: «هل كنت تعطين أمبرتو التعليمات لعشاء الليلة.. أم طلبت منه عدم إزعاجنا؟».

- أنزلني على الأرض.. أرجوك. يفترض بك أن ترتاح الآن، يا راوول.

أنزلها على السرير الفسيح بعناية مبالغ فيها، وهو يقول: «أنوي فعلاً القيام بذلك.. ولكن يجب أن تكون معي رفيقة أرتاح معها».

انقلبت هيلاري على الفراش ثم قفزت عنه من الجانب الآخر: «لن يكون هذا مريحاً».

أخذ يحل ربطة عنقه، ثم ألقى بها بعيداً وهو ينظر إليها بعينين لامعتين قائلاً بتحدٍ: «لست بحاجة لأن أتذكر السنوات الخمس الماضية لأعلم أنني لا أحب الراحة أو التسكع بكسل في الأنحاء».

فقالت محبوسة الأنفاس: «أنت تظن أنك تريد أن تشاطرني الفراش. الحقيقة، أنت لا تريد...».

فقال ساخراً: «لا أصدق أنني تزوجت امرأة تحلل هذه المسائل بالمنطق».

- إنني أحاول أن أفكر فيك، وهذا كل ما في الأمر. هذا ليس ما تحتاجه حالياً.

- دعيني أقرر هذا بنفسي.

وفجأة، جمد في مكانه، وحوّل عينيه عنها فيما بدا فمه متوتراً. فسألته: «ما الأمر؟».

عاد ينظر إليها والكآبة والمرارة في عينيه: «جدي كليمنت. لقد مات.. وهذا هو سبب وجود لوحة «ماتيس» في منزلنا بدلاً من أن تكون في مكانها في قصر «كاستيلو». هل كلامي صحيح؟».

شحب وجه هيلاري، فأردف ببرودة الثلج: «في حالة كهذه، عليك ألاّ تكتمي عني المعلومات».

أومأت برأسها وقد اغرورقت عيناها بدموع العطف: «نعم. آسفة. لقد مات جدك منذ أربع سنوات».

- وكيف مات؟

قالت راجية ألاّ يسألها عن التفاصيل: «بنوبة قلبية، أعتقد أنها كانت مفاجئة».

سار إلى النافذة وقد تصلبت كتفاه توتراً. شعرت بأنه يريد أن يبتعد عنها. لقد نبذها من حضوره، وكانت واثقة من ذلك كما لو أنه صفق الباب في وجهها.

تمتمت وقد فاضت مشاعرها التي كبحتها خوفاً من أن يجرحها: «راوول...؟».

فأجابها بجفاء: «اذهبي وتفقدي قائمة العشاء».

لمعت عيناها المضطربتان وقالت: «لا يهمني هذا. لا تبعدني عنك. أنا أيضاً أحببت جدتي كثيراً، وكاد موتها يدمّرني...».

فأجابها بعنف: «واحد منا لا يحب عرض مشاعره الخاصة».

- كما تشاء... كما تشاء!

وبوجه شاحب متوتر يعكس خيبة الأمل لرفضه مواساتها له، استدارت على عقبيها وغادرت الغرفة.

وجدت أمبرتو في الممر برفقته رجل آخر يحمل حقيبة ملابسها، فتوقفت هيلاري.

- سنيورا.

وبإيماءة خفيفة من رأسه، فتح الخادم باب الغرفة التالية وتنحّى جانباً لتتمكن من الدخول أولاً. إنها غرفة نومها! اخذت هيلاري تطرف بعينيها وهي ترى روعة الأثاث والمساحة الشاسعة. يبدو من غير المناسب أن يتشارك الزوجان الثريان غرفة واحدة. يا إلهي... سيكون هذا مربكاً.

وعندما لمحت صورتها في المرآة رأت أنّ عينيها ما زالتا تلمعان وكأن دموعها تهدد بالانهمار! كيف يمكن لكلمة فظة من راوول أن تحوّلها إلى امرأة لا تنفك تبكي؟

لماذا تذكرت أن راوول تصرف معها برقة أكبر عندما أفضت إليه مرة كم تفتقد جدتها؟.

وأرغمت نفسها على التركيز وهي تتبع أمبرتو إلى خارج الغرفة مبتسمة بمودة: «أحب أن أقوم بجولة سريعة في المنزل».

كانت تعلم أن هذا ضروري إذ ليس بإمكانها أن تدّعي أنها تعيش تحت سقف واحد مع راوول إذا لم تكن تعرف طريقها في أنحائه.

وبالرغم من ذلك، بدأ خداعها هذا يثير أعصابها. لا بد أن راوول سيستعيد ذاكرته خلال أيام وعندئذ لن يعود في حاجة إليها. أتراه سيقدّر لها محاولتها أن تساعده؟ في الواقع، لم تلعب سوى دور الرفيقة الحسنة المعشر؟

كان أمبرتو دقيقاً للغاية وهو يجول بها في الأنحاء وكانت هيلاري تندفع بسرعة من غرفة إلى أخرى، مذهولة لحجم المنزل. أثبط همتها الأثاث المحافظ الرسمي رغم أن اللوحات الفنية أسبغت سحراً على المكان. وفي المطبخ، تعرفت إلى الطاهي لكنها صعقت حين علمت أن الطعام نفسه يقدّم في كل مناسبة.

وإذ توقع الطاهي الفرنسي أن تمنحه مزيداً من الحرية، تقدم منها وقبّل يدها ثم أسرع إلى الحديقة حيث قطف زهرة صفراء عطرة وعاد بها إليها. وضعتها هيلاري في شعرها ضاحكة ثم صعدت إلى الطابق الأعلى لتستعد للعشاء.

كانت محتويات حقيبتها القليلة قد أخرجت وعُلقت في غرفة الملابس. استحمت والتفت بمنشفة كبيرة ثم عادت إلى غرفة النوم حافية وهي تبتسم لهذه الرفاهية التي لم تتعودها.

كان راوول في انتظارها في الغرفة، فوقفت مجفلة واتجه بصرها إلى الباب المفتوح بين الغرفتين.

- يا إلهي... يا لها من زهرة جميلة!

فرفعت يدها بخجل إلى الزهرة: «لقد قدّمها لي طاهيك...».

كان راوول قد استبدل بذلة العمل ببزة من الكتان الفاخر فبدا غاية في الوسامة ما جعلها عاجزة عن تحويل نظرها عنه.

قطب راوول حاجبيه إذ لم تعجبه وقاحة طاهيه. ومع ذلك، رأى ما أوحى إليه بهذه اللفتة. كانت بشرة زوجته رائعة وعيناها زرقاوين كبحيرة شمالية متجمدة وفمها مثيراً كثمرة الكرز. أتراه يشعر في كل مرة بأنه يريدها مرة أخرى؟ أتراه يشعر دوماً بالرغبة في تملّك الجسد الأنثوي المثير؟

وعندما التقت نظراتها بنظراته المشتعلة، شعرت بأنها تتجاوب مع رجولته المدمرة وسرت السخونة في أنحاء جسمها وارتجفت ساقاها. لم تستطع أن تتحرك، حتى أنها لم تجد ما تقوله.

وتكهرب الجوّ فيما قال بصوت خافت: «أريدك، يا حبيبتي».

أثار هذا الاعتراف البهجة والألم معاً في كيانها.

ذات يوم، كانت تحلم بهذه اللحظة السحرية، حين يتخلى راوول

عن تحفّظه ويرى أنها مغرية. وما ظنت يوماً أن جلمها سيتحقق لكن ها هو راوول يقول إنه يريدها.

وذكرت نفسها بألم بأن راوول لا يريدها حقاً. إنه يعبر فقط عن رغبة طبيعية في امرأة هي في الحقيقة وهم. المرأة التي يعتقد أنه تزوجها بشكل طبيعي والتي يعتقد أن بإمكانه أن يثق بها. ولكنها ليست تلك الزوجة بل هي مجرد امرأة دفع لها ذات يوم أجراً لتلعب دور عروسه، امرأة لا يهتم بها شخصياً. كما أنها أدنى منه مستوى على الصعيدين الاجتماعي والمهني.

قطب راوول وهو يرى التعاسة واليأس يعلوان ملامحها ومد يديه إليها وهو يقول: «هيلاري..؟».

فقالت بصوت خافت: «لا علاقة من هذا النوع بيننا».

تجاهل محاولتها التملص منه، وأمسك بمعصمها: «لا أفهم...».

خنقتها الدموع. تبيّن لها أن ما اعتقدت أنه الصواب أصعب ما فعلت في حياتها. وأجابت: «اسمع... هذا ليس بالأمر الهام، وما من داعي للقلق. اعلم فقط أني لست بالأمر الهام في حياتك. وعندما تستعيد ذاكرتك ستتذكر ذلك وستكون مسروراً لأنني جعلتك تتوخى الحذر...».

جمد راوول مكانه ونظر إليها بعينين لامعتين متسائلاً بارتياب: «ما الذي فعلته كي أعاملك بمثل هذه الطريقة؟».

فوجئت لرد فعله هذا وقالت: «أنا لم أفعل شيئاً».

يبدو أن راوول نسي قوته، فقبضته العنيفة كادت تحطم معصمها ما جعلها تشهق بضيق: «إنك تؤلمني».

ترك يدها على الفور، مسارعاً للاعتذار لكن كلماته التالية

أوضحت أنه لا ينوي تجاهل الموضوع الذي كانا يناقشانه.

- أوضحي لي ماذا عنيت بقولك إنك (لست بالأمر الهام في حياتي).

فقالت بضعف: «كل ما عنيته هو أنك مشغول دوماً بحيث لا تلاحظ وجودي بقربك».

- إذا كنت غير مخلصة فلا تخفي الأمر. احزمي أمتعتك فقط واخرجي من حياتي مرة أخرى.

ماذا فعلت؟ فبدلاً من أن تدفع راوول لالتزام الهدوء، ها هي تجعله أكثر توتراً وقلقاً. وهتفت بذعر: «لا تكن سخيفاً.. لا علاقة للأمر بالإخلاص».

قال ساخراً وبعنف بالغ: «اعتاد رجال أسرتنا الزواج من نساء طائشات، لكننا نسارع إلى طلب الطلاق».

- سأعتبر هذا إنذاراً لي.

وحاولت عبثاً، أن تبتسم بمرح قبل أن تدخل الحمام. تملكته الحيرة وهو يعود بذهنه إلى الوراء ليتذكر: (لا علاقة من هذا النوع بيننا). (أنا لست بالأمر الهام في حياتك). (إنك مشغول دوماً بحيث لا تلاحظ وجودي معك).

أي نوع من الزواج هذا الذي يجعلهما ينامان في غرفتين منفصلتين، فهل هذا الخيار خياره هو؟ لقد لمّحت إلى أن علاقتهما كانت كما أرادها هو. وثار غضبه لهذا الاستنتاج فهو يكره الفشل. كانت غريزته تشير إلى أن زواجه يعاني من مشاكل. وقد عكست زوجته صورة عن نفسه تظهره مدمناً على العمل، نادراً ما يتقرّب منها. ماذا يمكنه أن يظن غير ذلك وهو يتذكر تجاوبها معه في السيارة، وقد بدت عليها الصدمة والدهشة في البداية ثم ما لبث أن

تبعهما اللهفة والتشجيع؟

لا بدّ أنّ إصلاح أي خطأ في علاقتهما ممكن!

ارتدت هيلاري تنورة سوداء قصيرة وبلوزة خضراء. وبعد أن نظرت إلى الساعة، اتصلت بأختها.

سألتها إيما بلهفة: «كنت أفكر فيك طوال النهار، كيف حال زوجك؟».

- إنه بخير، لكن الإصابة في رأسه ما زالت تسبب له بعض المشاكل. لم يعد هو نفسه تماماً.

- ما معنى هذا؟

- معناه أن بإمكاني، حالياً، أن أكون مفيدة.. كصديقة فقط.

منذ أربع سنوات، لم تطلع أختها على حقيقة زواجها الصوري هذا، خوفاً من أن تخسر احترامها لها وللزواج أيضاً. ما بدا لها حينذاك، مجرد كذبة بيضاء لا ضرر فيها، بدا الآن خدعة خبيثة يصعب الصفح عنها. عندما تتحسّن حالة راوول، ستطلع هيلاري إيما على القصة كاملة. فهي لا تستطيع أن تترك الفتاة الصغيرة تعتقد أنها السبب في فشل زواج أختها الكبرى.

- ما مشكلته بالضبط؟

تنفست هيلاري بعمق، ثم شرحت لها الأمر باختصار، فهتفت إيما: «أتعلمين ماذا يعني هذا؟ سيمنحكما هذا فرصة لبداية جديدة!».

- لا مجال لأي شيء من هذا، أريد فقط أن أساعده حتى يشفى.. وهذا كل ما في الأمر.

عندما هبطت السلم، أشار أمبرتو إلى غرفة الطعام المضاءة بالشموع حيث يتألق الكريستال والأطباق الصينية والأدوات الفضية.

وكانت أزهار السوسن تزين المائدة.

وعندما دخل راوول كانت هيلاري تقول للرجل المسن: «ما أجمل كل هذا».

كاد راوول يتأوه حين رأى المائدة الرائعة الزينة. ما المناسبة؟ أهو عيد ميلادها أم عيد زواجهما؟

وسأل: «هل نحتفل بشيء ما؟».

احمر وجه هيلاري ورفعت كأسها بيد متوترة: «أظننا نحتفل بخروجك من المستشفى».

- لدي موضوع حيادي. أخبريني عن أسرتك.

لم تجد مانعاً من أن تتحدّث في هذا الموضوع: «ليس ثمة ما يستوجب الحديث عنه».

- والداك؟

كرر سؤاله يريد معلومات عن خلفيتها، فقالت: «لقد توفيا. قتلا في حادث سيارة عندما كنت في السادسة عشرة. وكانت أختي إيما في الحادية عشرة».

فقطب وسأل: «ومن كان مسؤولاً عنكما؟».

لم تشأ أن ترهق مشاعره بحقيقة حياتهما التعيسة فأجابت: «عشنا مع ابنة عم أبي. وإيما الآن في مدرسة داخلية».

- هنا في سويسرا؟

جمدت مكانها: «لا بل في إنكلترا».

- أليس لديكما أقارب آخرون؟

- كلا. لقد ربّتني جدتي وهي إيطالية. عندما كنت طفلة عاشت معنا.

فقال يلومها باللغة نفسها: «مع ذلك أنت لا تتحدثين معي

بالإيطالية؟».

أجفلت، ثم قالت: «هذا غير ممكن. فأنا أفهم الإيطالية أكثر مما أجيد التحدّث فيها..».

فقال من دون تردد: «لكن يُفترض بهذا أن يكون قد تغيّر».

فتابعت تجيبه بالإنكليزية وقد بان العناد في ملامحها: «لا، إذ ضحكت مرة حتى كاد يغشى عليك من لغتي الإيطالية لأن بعض الكلمات التي أستعملها كانت قديمة الطراز».

- كنت أغيظك، يا عزيزتي.

غامت ملامحها. لا، لم يكن يمازحها، فقد كان متضايقاً لمعرفتها باللغة الإيطالية بما يكفي لتفهم ما اعتبره حديثاً سرياً.

وعادت تقول: «لقد تجادلنا قليلاً لكنني لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع».

قررت أنه من الأفضل أن تبقى صامتة بدلاً من تغامر وتعطيه انطباعاً سيئاً، فركزت على طعامها اللذيذ. وبعد العشاء رفضت القهوة وأعلنت أنها ستذهب إلى الفراش باكراً لأنها متعبة.

قال برقة: «لم تبلغ الساعة الثامنة بعد».

فقالت بجفاء وهي تقف: «أنا لا أسهر حتى وقت متأخر».

نهض راوول بدوره؛ وعندما مرت بقربه أمسك بيدها: «ثمة سؤال واحد عليك أن تجيبي عنه».

- لا. لا.

نظر في عينيها بحدة، فهو لا يطيق الرفض: «فكرة من هي أن نستعمل غرفتين منفصلتين؟».

فجف فمها وقالت مدركة أنه الجواب الوحيد المناسب: «فكرتك أنت..».

بدت على فمه الجميل ابتسامة ساخرة، فأخذ قلبها يخفق تجاوباً أشبه بعصفور علق في الفخ. وترك يدها فعادت تكمل سيرها بساقين واهتين، وهي تتمتم: «تصبح على خير».

بعد عشر دقائق، وبعد أن غسلت أسنانها، ونظفت وجهها من زينته، أطفأت مصباح غرفتها ثم قفزت إلى سريرها المريح وهي تتنهد باستحسان. لكن الإثارة بقيت أقوى من أن تسمح لها بالنوم، فعادت بها أفكارها المضطربة إلى الماضي وإلى بداية معرفتها.

لقد وقعت في غرام رجل لم يخرج معها قط في موعد غرامي. عاد إلى الصالون بعد شهر تقريباً. فلاحظ الموظفون الآخرون هذا، وأصرت أقدم العاملات على أن تأخذ مكان هيلاري. وتملكتها الدهشة والسرور عندما اعترض راوول على هذا التغيير وطلبها شخصياً. سألته هيلاري: «هل تذكرت اسمي؟».

- لقد وصفتك لهم.

- كيف؟

- هل تكثرين الكلام دوماً؟

- إذا أخبرتني كيف وصفتني فسأخرس.

- صغيرة الجسم، ذات شفتين قرمزيتين، وتنتعل حذاءً عالي الساقين.

لم تُسرّ بهذا الوصف لكن بعد خمس دقائق نسيت وعدها بأن تخرس، وسرعان ما وجدت نفسها تسأله عن عمره وعما إذا كان متزوجاً أم لا. وفي الزيارات التي تلت لم يكن يثرثر معها، لكنه أصبح يسمح لها بأن تثرثر معه. وسألته عن نوع عمله، فأجاب: «أنا أعمل في مصرف».

وبعد حين، قرأت اسم «ساباتينو» صدفة في مقال في قسم

الأعمال من الصحيفة، فتبيّن لها أن راوول لا يعمل في مصرف بل هو نفسه صاحب مصرف.

ويوم سمعته يذكر وصية جده واحتمال خسارته لمنزل الأسرة الذي بدا أنه يعشقه، تدخّلت في الموضوع لتعرض عليه أن تلعب دور زوجة. ترك المكالمة الهاتفية وأخذ ينظر إليها غير مصدق، فتابعت وقد التهب وجهها لهذا الإقتراح: «حسناً، ما المانع؟».

كانت متلهفة لأن تنتهز الفرصة، فتساعده بحيث يلاحظ وجودها أو حتى يشعر نحوها بنوع من المودة.

- يمكنني أن أفكر في ألف مانع ومانع.

- أنت تعقّد الأمور لأنك رجل حذر للغاية. لكن مشكلتك بسيطة، فأنت بحاجة إلى زوجة مزيّفة لتحصل على بيتك وأنا مستعدة لأن أساعدك...

- أرفض مناقشة هذا الأمر معك، فقد استرقت السمع إلى حديثي.

- ربما عليك أن تطلب من أحد أصدقائك أن يساعدك وتخفف من كبريائك هذه.

- أين تعلمت أن تتحدثي الإيطالية الثقيلة هذه؟

قالت له غاضبة: «ما الخطأ في لغتي الإيطالية؟».

راح راوول يضحك: «أنت تستعملين تعابير قديمة وكلمات...».

فقالت وهي تغلي غضباً: «أنت فظ للغاية أحياناً».

- لقد قاطعت حديثاً سرياً لتعرضي عليّ مشروعاً مشيناً... فماذا تتوقعين؟

- كنت أعرض عليك مساعدة..

- لماذا؟ إننا غريبان عن بعضنا البعض.

كانت طعنة في الصميم، فأحنت رأسها وهزت كتفيها: «آسفة لأنني تكلمت...».

- التجهم غير جذاب.

رفعت رأسها بسرعة مذهلة: «وما الذي تجده جذاباً فيّ؟».

فأجاب بجفاء: «لا شيء».

- هيا.. أنت لا تعني هذا.. لا بد أنك تجد فيّ شيئاً معقولاً.

نظرت إليه في المرآة فوجدته يبتسم تلك الابتسامة النادرة التي تجعل راحتيها تعرقان وقلبها يخفق. لكنه لم يقتنع. وبعد ثلاثة أسابيع اتصل بها وطلب منها أن تتناول الغداء معه في الفندق، قائلاً إن الموعد يتعلق بعمل.

عندما عدّد راوول شروط زواج المصلحة الذي اقترحته في البداية، بدا كرجل أعمال رائع. لكنه قضى على شهيتها فلم تأكل شيئاً. قال إنه سيدفع لها مكافأة لقاء الخدمة التي ستقدمها له، فرفضت. لم تشأ أن تأخذ أجراً وكانت تعني ذلك. عندئذ، ذكر مبلغاً من المال قطع أنفاسها.

- فكري في هذا ملياً، وسنناقشه عندما نجتمع فيما بعد..

- اسمع. لو أردت مالاً لما عرضت عليك ما أفعله به. ليس من الصواب أن آخذ نقوداً أجراً للزواج. أعني أنّ كل ما تريده هو أن تحصل على البيت الذي كان ملكاً لأسرتك لمئات السنين، ولن أقبل بأجر لقاء هذا.

نظر راوول إليها مقيّماً فترة طويلة: «لا أرغب في التدخل في أمورك الشخصية، لكنك تعيشين عند خط الفقر ولا أمل كبير لديك في تغيير أحوالك...».

www.elromancia.com

- إنها مسألة وجهة نظر..

- مساعدة مالية ستمنحك خيارات لم تكن متاحة لك من قبل. يمكنك أن تعودي إلى المدرسة...

فنظرت إليه بذعر: «لا. شكراً! المرة الأولى كانت سيئة بما يكفي. كما أنني أعشق مهنتي».

أكمل راوول كلامه وكأنها لم تتكلم: «عليك أن تكملي تعليمك، أن تكوني طموحة».

فسألته بأمل مفاجىء: «هل ستخرج معي إذا ذهبت إلى الكلية؟ لا أظنك ستنتظر هذا الوقت كله».

- لا تكوني وقحة بهذا الشكل. كنت أقدم لك بعض النصائح.

- وتغريني بنقودك.

وقد نجح في إغرائها. ففي الأيام التي تلت، خطر لها أن بإمكانها أن تغير حياتها وحياة أختها بقسم بسيط من المبلغ الذي ذكره. إذا استأجرت شقة في منطقة أفضل فستتمكن من أن تفصل أختها عن المجموعة التي تعاشرها. لو اشترت لنفسها صالوناً صغيراً، فستتمكن من أن تختار ساعات عملها وتمضي مزيداً من الوقت مع إيما في البيت. في النهاية، وافقت على قبول جزء من المبلغ الذي أراد أن يمنحها إياه. فقد أغرتها فكرة ما يمكن أن تفعله بهذه النقود، ولم تشعر كم فقدته من احترام راوول إلا بعد أن أخذت الشيك منه.

كتمت الآهة التي تصاعدت من أعماقها على الماضي الذي لا يمكن تغييره، وعادت بذهنها إلى الحاضر بعد أن قاطع أفكارها صوت الباب وهو يفتح. وبعد ثوانٍ، غمر الضوء الغرفة. أجفلت وأخذت تطرف بعينيها بعنف وهي تنظر إلى راوول، محاولة أن تفكر بوضوح.

وفجأة، أمسكت يد متسلطة بأغطية السرير وألقتها بعيداً فأطلقت صرخة امتزج فيها الذهول والشعور بالإهانة، فيما انحنى وحملها وكأنها طرد عاد يسترجعه.

صرخت: «ما الذي تفعله؟».

قال وهو يعدو بها إلى غرفته حاملاً إياها بين ذراعيه القويتين: «من الآن فصاعداً ستتشارك الغرفة نفسها يا عزيزتي».

فأجابت متمتمة: «لا أظنها فكرة جيدة».

www.elromancia.com

٤ ـ تلك المرأة!

وضع راوول هيلاري على سريره وقد توهج وجهها احمراراً. كانت هيلاري تعشق ارتداء القمصان البالغة الأنوثة إذ تشعرها بأنها رائعة الجمال. لكن أحداً لم يرها في هذه الملابس المثيرة. لذا، انتصبت جالسة في السرير، محاولة بلهفة أن تجذب الملاءة لتغطي بها ساقيها.

فتح أزرار قميصه وانحنى ليخلع حذاءه فيما حبست أنفاسها وحاولت أن تحوّل نظراتها عنه فلم تستطع. إنها لم تنفرد قط برجل في غرفة نومها.

إنها لا تزال عذراء، فراوول هو أول رجل عرفته وتزوجته، وهذا علّمها أن تبتغي ما لا تستطيع أن تحصل عليه.

قد لا تكون مشاعر راوول مماثلة لمشاعرها، لكنها لم تنس البهجة التي تملكتها حين تجاوبت معه.

كل من عرفته بعده كانت تقارنه به. كانت تحاول أن تشعر مرة أخرى بما شعرت به مع راوول، ما جعلها صعبة الاختيار.

- سأدخل الحمام، يا جميلتي...

احمرّ وجهها وحوّلت انتباهها عن عضلات صدره السمراء القوية البارزة من قميصه المفتوح، وتمتمت تقول: «لا تنادني بهذه الصفة، فأنا لست جميلة».

جلس على السرير ونظر إليها ضاحكاً: «إذا قلت لك إنك رائعة

الجمال فأنا أعني ذلك».

- ولكن...

- إن قوامك مذهل.

- أنا لست طويلة..

- لكن قوامك خارق الجمال، لطالما ساورني دافع لا يقاوم لأن أحملك وأمدّدك على أقرب سرير.

وهبّ واقفاً بينما خاضت معركة ضارية مع ضميرها، لتحوّل بصرها المتلهف للتجسس على حركاته. قالت: «يفترض بك أن ترتاح الآن بينما أبقى أنا في غرفتي».

فقال ضاحكاً: «نامي وكفّي عن التذمّر».

كان ضاحكاً مبتسماً. وبدا سعيداً بشكل غير مألوف لها. تقلبت على جنبها وهي تفكر في أن لا ضرر من النوم في سرير واحد. فالسرير واسع، ومن الغباء أن تثير ضجة بسبب هذا الأمر التافه. لكن لنفرض أنه تقلّب في منتصف الليل وثارت مشاعره. نعم.. مجرد افتراض.. فهل ستتمكن من مقاومته؟ إنها تعلم أنها لن ترغب في ذلك. واغرورقت عيناها بالدموع اشمئزازاً من نفسها، فغالبتها بغضب.

وحدّثها صوت في داخلها بأنه سيستعيد ذاكرته قريباً. وإذا ما أقامت أيّ علاقة جسدية معه، فكيف سيكون شعوره حيال هذا الأمر؟ إنه رجل عازب ذو خبرة، وإذا ما تصرفت بشكل عفوي... وضغطت بأصابعها الباردة على وجنتيها محاولة أن تقتل أفكارها هذه. كانت مذعورة من فكرة أنها تحاول إقناع نفسها بأن تدع راوول يفعل بها ما يشاء.

- أما زلت مستيقظة، يا حبيبتي؟

عند سماعها صوته العميق، رفعت رأسها ونظرت إليه من تحت الملاءة. كان قد لفّ حول وسطه منشفة كبيرة، وقد تلألأت قطرات الماء على شعر جسده الأسمر المفتول العضلات.

تأملها بهدوء فيما أومأت هي ببطء. جلس بجانبها على الفراش فأخذ قلبها يخفق بعنف إلى حد جعلها تخاف من أن تصاب بنوبة قلبية.

- راوول.

- تعجبني طريقتك في لفظ اسمي.

وانحنى إلى الأمام يحتضنها. وعندما تأوهت بصوت خافت وهي ترفع يديها لتغرقهما في شعره الكث وتقربه منها، همس متأوهاً: «لك أروع فم رأيته».

رفعت عينيها إلى ملامحه الوسيمة ورأسها يدور وقالت: «لا يمكننا أن نفعل هذا.. هذا غير ممكن».

قال بصوت أثخنته المشاعر: «سترين...»

راح قلبها يخفق بعنف، فيما تملّكها شعور غريب امتزج فيه الخجل والارتباك والبهجة.

- منذ وقعت عيناي عليك في المستشفى وأنا أفكر في أن أحملك إلى سريري. كان شعوراً ملحاً للغاية. هل كان الأمر على هذا الحال في أول مرة رأيتك فيها؟

فأجابت وهي تخبىء وجهها في كتفه: «إنك لم تقل هذا أبداً»

- أنا إذن لا أشاركك كل ما يخطر في بالي؟

- كلا...

أبعد وجهه عن وجهها لكي يراها جيداً، ثم عاد يعانقها مرة أخرى بقوة.

قال مسروراً: «أنت حارة يا جميلتي».

كان جسمها متوتراً حساساً بشكل لم تعرفه قط من قبل، كما لم يتملكها قط مثل هذا الأحاسيس القوية. فقدت قدرتها على التفكير وراحت تشعر فقط.

قال لها مداعباً بصوت خافت وهو ينظر إليها بعينين جائعتين: «لا تكوني عجولاً..».

شهقت هاتفة باسمه: «راوول...».

أحاطت عنقه بذراعيها لئلا يبتعد عنها.

كل قبلة كانت أروع مما حلمت به، وسرعان ما تاهت في عالم مظلم كان جديداً تماماً عليها.

مشاعرها الجارفة جعلتها تتلوّى بارتباك وخجل. كانت تشتعل شوقاً وتنهدت: «راوول... أرجوك».

وفي خضم هذه المشاعر المحمومة، أصبحت عاجزة عن التحكم في نفسها. جمد مكانه ونظر إليها مشككاً: «هل ما زلت عذراء أم أنني أتخيّل ذلك؟؟».

كانت قد اعتادت كلامه الجريء. لطالما حلمت بأن تكون لراوول، ولا مجال للندم: «لم أكن أعلم أن مثل هذا الشعور سيتملكني....».

فقال بلكنته الإيطالية المطاطة: «زوجتي... عذراء فعلاً».

أحاطته بذراعيها وقالت: «أرجوك...».

ما إن قامت غريزياً بتشجيعه، حتى استسلم للإغراء. واستسلمت هي بعجز ووهن لما أثاره فيها من أحاسيس.

خطر لها أنها أوقعت نفسها في الشرك بعد أن أصبحت علاقتها براوول حميمة.

وفي تلك اللحظة بالذات، أحاطها راوول بذراعه وراح يتأمل وجهها المتوهج بعينيه البنيّتين تحت أهداب سوداء، ثم طبع قبلة على جبينها وهو يقول: «يا للزوجة العذراء المذهلة!. هل ما زلت عروساً؟».

شحب وجه هيلاري وأحنت رأسها. لا بد أنّه يتساءل عما إذا كانا عروسين. ولو لم يكن ممسكاً بها، لاختبأت تحت السرير ورفضت الخروج. كانت من الخجل من نفسها بحيث لم تستطع أن تنظر إليه أو حتى تفكر في سلوكها.

أتراها جنّت تماماً؟

- تبدين هادئة جداً.

فهتفت: «أنا متلهفة للاستحمام».

وقفزت من السرير.

كان الهرب هو المفرّ الوحيد الذي فكرت فيه. كان وجهها قد احمر خجلاً، وحاولت أن تترك الغرفة بشكل طبيعي فيما بدا راوول مقطباً لا يفهم شيئاً. سألها غير مصدق: «ما الذي حدث لك؟».

أرغمت نفسها على الابتسام وأجابت: «وما الذي يمكن إن يحدث لي».

وعادت إلى غرفتها، وما إن اطمأنت إلى أنها بعيدة عن الأنظار، حتى دخلت الحمام وأقفلت الباب خلفها.

ما الذي سيظنه راوول بها عندما يستعيد ذاكرته؟ وتملكها شعور عنيف بالعار والخزي. سيظنها امرأة استغلالية استفادت من الظروف. سيدرك أنّ المرأة المخبولة وحدها تتشبث بالفرصة الوحيدة التي تتاح لها لكي تقترب منه؟ سيعلم أنها وقعت في غرامه منذ أربع سنوات تقريباً وأنها زالت تراه جذاباً للغاية. لكنه سيراها هو مثيرة

للشفقة. وانكمشت من المذلة وماتت ألف مرة لهذه الفكرة.

في الغرفة المجاورة لغرفتها رن جرس الهاتف الداخلي فرفع راوول السماعة، وقال أمبرتو إن ثمة زائر قد وصل.

تناول راوول ملابسه وهو يسأل: «من هو الزائر؟».

تردد الرجل المسن لا يرغب في ذكر اسم الزائر، لكنه أوحى بأن الأمر يستوجب الكتمان البالغ.

وبعد دقائق، نزل راوول السلم وهو يسأل خادمه بجفاء: «ولِمَ هذا الغموض كله؟».

انقبضت ملامح وجهه القوية لأن الاسم الذي ذكره الخادم لم يعن له شيئاً ما ملأه غضباً وإحباطاً.

سأله أمبرتو: «أتراني أخطأت في السماح لها بالدخول؟».

شعر بالغيظ لضياعه الناتج عن فقدانه لذاكرته، لكنه رفض أن يتخذ من خادمه المسن موضعاً لثقته. أراد أن يعلم سبب اعتقاد خادمه أنه أخطأ بإدخال المرأة الزائرة إلى بيته، لكن كبرياءه الغاضبة جعلته يسكت. دخل غرفة الاستقبال الخلفية التي نادراً ما يستعملونها والتي فتحها أمبرتو للزائرة، فتقدمت منه سمراء رائعة الجمال، خضراء العينين، طويلة القامة وبالغة الأناقة. ألقت بنفسها بين ذراعيه وهي تهتف: «هل لديك فكرة عن مدى قلقي؟ عندما لم تعد بالأمس افترضت ببساطة أنك كنت مشغولاً. لكنني عندما سمعت شائعة تقول إنك تعرضت لحادث اصطدام، لم أستطع إلا أن آتي إلى هنا».

أبعدها عنه وقد تملكه الارتباك لتحيتها البالغة الإلفة هذه، وبدا الحذر في نظراته الباردة: «كما ترين، لم يكن قلقك ضرورياً. أنا بصحة جيدة».

أرتجفت سيلاين ديوروكس بشكل مبالغ فيه وقالت شاكية: «لا

www.elromancia.com

تكن بارداً معي بهذا الشكل».

فأجاب يريد أن يكسب الوقت: «هل كنت بارداً؟».

زمّت السمراء شفتيها ورمقته بنظرة مثيرة من تحت أهدابها. أثار التكلف الذي رافق كل كلمة نطقت بها وكل لفتة أعصابه فيما تنهدت هي وقالت: «لا بأس.. أعلم أنه ما كان عليّ أن أحضر إلى هنا لأنك تطالب خليلتك بالتكتم والتحفظ، لكننا لم نعد في القرن التاسع عشر».

لم تكن الومضة التي ظهرت على ملامحه، هي الوحيدة التي كشفت عن الصدمة التي أصابته لكلامها هذا، بل الشتيمة التي أطلقها بعد أن لمعت في ذهنه. لقد فهم أخيراً ما الذي جعل أعصاب أمبرتو الفولاذية تتوتر فسيلاين ديوروكس خليلته وهي واثقة من نفسها بما يكفي لتزوره في بيته رغم علمها أنه متزوج.

موقف خليلته عكس ما سيكون عليه موقفه نحو زوجته. وخطر في باله أن تلك الشتيمة التي خطرت له الآن، تنطبق أيضاً على سلوكه قبل الحادث. لم يحتج إلى عبقرية ليدرك سبب فشل زواجه، أو لما قالت له زوجته إنه لا يهتم بها.. فقد كانت له علاقة.

- ما زلت أرى أنه كان من الحكمة لو قاومت رغبتك في القدوم إلى هنا. لكن، وبما أنك هنا الآن، فمن الأفضل أن أخبرك أن علاقتنا انتهت.

عندما أخذت تتأمله مدهوشة غاضبة، أنهى حديثه بالأسف المعتاد. كان يعلم أن كلامه غير مقنع، لكن همه الوحيد هو أن يبعد سيلاين عن بيته قبل أن تراها هيلاري فتعتبر ذلك بمثابة صفعة في وجهها. لم يتعوّد أن يجد نفسه مخطئاً وقد ثارت ثائرته عندما اكتشف أن حياته الخاصة مضطربة. أشارت سيلاين إلى أنه لم ينضم

إليها في الموعد المحدد بينهما أمس فقط، ما لا يترك مجالاً للشك. كان غير مخلص لزوجته، فلا عجب في أن يحس بمثل هذا التوتر بالنسبة إلى علاقتهما.

ترى هل هيلاري على علم بعلاقته بسيلاين؟ إنها على علم طبعاً بوجود امرأة أخرى! وهذا هو السبب في أن زواجهما غير مكتمل. هل رفضت هيلاري أن تشاركه الفراش لأن لديه خليلة؟ لقد طلب منها ألاّ تعطيه معلومات مزعجة، وهي لم تخبره بشيء قد يزعجه. لكنها لم تتمكن من إخفاء انزعاجها واضطرابها بعد أن ناما في سرير واحد وإلاّ لاستنتج أنها ما زالت عذراء فقط لأنهما ما زالا عروسين.

لكن تفسير سبب عذريتها والشعور بالذنب تجربة جديدة بالنسبة إليه. في الواقع، وبما أنه رجل من آل ساباتينو فقد اعتاد أن يقدّر الأخلاق، فهم رجال ساباتينو يعتزّون بكرامتهم.

لكن زوجاتهم أظهرن طمعاً وميلاً إلى الخيانة وضعفاً أخلاقياً. يبدو أن هيلاري أفضل من النساء اللواتي اختارهن أسلافه.

بقي صامتاً بينما راحت سيلاين تحاول أن تجعله يغير رأيه قبل أن تتهمه، أخيراً، بالقسوة وعدم الإحساس. لم ينطق بأيّ كلمة. سيعوّض عليها بشكل سخيّ بعد أن أنهى علاقتهما بشكل مفاجئ. وتصاعد غضبها لفشلها في إحداث تأثير ملموس فيه فتركته أخيراً خارجة إلى الردهة. وكانت هيلاري قد استجمعت شجاعتها وقررت البحث عن راوول إذ شعرت بالقلق حين غاب عن غرفة النوم طويلاً. فخرجت في الوقت نفسه الذي كانت سيلاين ديوروكس تجتاز فيه الردهة في الأسفل. وقفت هيلاري جامدة على فسحة السلم تحدق في هذه المرأة الغريبة، ذات الشعر الكستنائي المرفوع،

والوجه المذهل الجمال والساقين اللتين بدتا لها بطولها.

رأت السمراء تخرج فتساءلت عمّن تكون. هل كانت تزور راوول؟ أيمكن أن تكون عشيقته؟ لماذا لم يخطر في بالها أن راوول على علاقة بامرأة؟ وتملكها القلق والضيق فأسرعت عائدة إلى غرفتها ولجأت إلى السرير. آخر فكرة خطرت لها قبل أن تستسلم للنوم، هي أنه لو كان في حياة راوول امرأة أخرى لما اتصلت بها عمته في لندن.

وبعد عشر دقائق، وقف راوول ينظر إلى زوجته النائمة. بدت أهدابها مطبقة وكأنها تبكي. الضمير الذي لم يكن يعلم أنه يملكه، أخذ يخزه الآن. في مراهقته، لم يضيّع وقتاً أو جهداً على النساء. لم يقع في الحب قط، واعتاد أن يتركهن هو. لكن هذه المرأة بالذات مختلفة، لأنه تزوجها وجعلها تعيسة. أظافرها المقضومة تتحدث عن ذلك وهي تستحق أكثر مما وجدت. لم تذكر سيلاين، وهذا أمر مناسب، وهو لن يأتي على ذكرها أيضاً. إنها زوجته وسيتابعان من تلك النقطة.

عندما استيقظت هيلاري أخذت تتمطى نظرت إلى ساعتها بذعر، فوجدت أنّ بعد الظهر حلّ. راودتها أحلام مزعجة ما جعل ليلتها مضطربة فتأخرت في النوم. نزلت من السرير وحاولت أن تشغل نفسها، لكن عقلها راح يخونها طوال الوقت. تذكرت راوول بشعره الأسود الرطب وعينيه القاتمتين الرائعتين وارتجفت. مجرد التفكير في راوول جعلها تشعر بوهن في ركبتيها. مظهره البارد القاسي يخفي خلفه مزاجاً دافئاً مشبوباً.

لكن سعادتها الكبرى تكمن في أنها أصبحت تجرؤ على القول إن راوول رجلها. ورغم سخافة هذا الأمر إلاّ أنه حلمها. الليلة

الماضية، حطمها الشعور بالذنب لأنها شاركت صادقة مع راوول فراشه. لطالما كانت مستقيمة وصادقة لكن الأحداث جعلت من المستحيل أن تكون مع راوول. لكن وفيما هي تبعد الستائر لتكشف عن نهار مشرق، قررت أنها متعبة للغاية وقاسية على نفسها.

إذن، فقد أتمّت زواجها مع راوول! وبينما يبدو هذا خطوة هائلة بالنسبة إليها، إلا أنها تظن أنه ليس ذو أهمية بالنسبة إليه.

إنه بالغ الثراء والوسامة ولا بد أنه ذو تجربة واسعة مع النساء، سواء أعجبها هذا أم لا. لعلها زوجته لكنه لا يتذكرها. ومع ذلك لم يضيّع الوقت سدى. لكن، بصراحة، ليس لديها ما تشكوه من هذه الناحية. في الواقع، كانت أشبه بجارية ترجو أن يشعر بالحرية معها فيكرر ما حدث بينهما.

إنها غارقة في غرام راوول ولم تكن تتصور أن تمنح رجلاً غيره حبها. فلماذا لا تجمع ما أمكنها من الذكريات غير الضارة للمستقبل؟ وبعد أن ينساها تماماً، تبقى معها الذكريات تؤنس وحدتها، فمن بعده ستعيش وحدها لأنها لا تؤمن بالعيش مع ما يسمونه بخيار ثان.

فما من رجل يقارن براوول البالغ الوسامة والجاذبية، عدا عن الذكاء والقوة. إن الرجال الآخرين يتقلصون أمامه.

هذا هو السبب الذي جعلها لا تستطيع نسيان حبها. سمعت صوتاً في غرفة النوم فخرجت من الحمام وأحمر الشفاه لا يزال في يدها. وعندما رأت زوجها واقفاً عند العتبة، تمتمت: «آه... أهذا أنت؟».

فقال بصوت أجش: «يا لك من محبة للنوم».

استقرت نظراتها على وجهه القوي، وتسارعت خفقات قلبها. وعندما لاحظ مجموعة مساحيق الزينة الموجودة على الطاولة قطب

جبينه: «لست بحاجة إلى هذه الأشياء. تخلصي منها».

نزعته الاستبدادية أثارت فيها نزعة التمرد، فعادت إلى المرآة وأخذت تصبغ شفتيها بيد متمرّدة: «أنا أحب الزينة».

قال بنبرة عكست دهشته لاستخدامها مساحيق الزينة معه: «لكن يجب أن تعلمي أنني لا أحبها».

فقالت: «لحسن الحظ أنّ لديك الخيار في ألاّ تستعمل مساحيق الزينة».

- دعي عنك السخرية. إنني أكره كل ما هو زائف.

نظرت إليه قائلة بابتسامة عريضة متسامحة: «إنك رجل مذهل... فأنت متحكم، مدلّل».

فقال بشيء من الارتباك: «مدلّل؟».

- نعم. أينما ذهبت يحيط بك أناس يتلقون أوامرك. خدم، موظفون... ظننت أنك تعبت من السيطرة إلى هذا الحد، لكن يبدو أن استمرارك في إعطاء الأوامر ينعشك.

فقال بهدوء: «عندما أعبّر عن تفضيلي لأمر ما فهذا لا يعني أنني أعطي أوامر».

- هذا أشبه بإعطاء الأوامر. لن أزيل زينة وجهي فقط لأنها لا تعجبك. أنت ترتدي بذلة مملة تماماً... فهل تلقي بها لأنها لا تتناسب مع الزي الحديث؟

- أنا لا أرتدي الأزياء الحديثة في المصرف.

سمعت نفسها تقول وقد تملكتها الإثارة: «لكنك لست في المصرف الآن».

فجذبها إليه من دون سابق إنذار وهو يقول: «أنت جريئة جداً».

أشرق وجهها وهي تنظر إليه... وجذبها أكثر فكادت تذوب بين

ذراعيه القويتين، وهمست: «أتعني أنني وقحة؟».

أحاط وجهها بيديه السمراوين. كانت عيناها الزرقاوان تعكسان التشجيع، فتسمّرت نظراته على ملامحها بنهم: «كل ما أعرفه هو أنك تبعثين الحرارة في كياني. ولولا أن الخادمات في الغرفة المجاورة يحرسن أمتعتك، لبرهنت لك بالفعل ما أقوله. وأظنك ستحبين ذلك يا حبيبتي».

سرت الحرارة في جسدها. كادت لا تصدق أنه قال لها هذا لكن نظراته العنيفة أكدت كلامه. ارتجفت ساقاها وشعرت بالوهن والإثارة لجرأته، وتسارع نبضها.

وتابع يقول مفكراً: «بإمكاني أن أفعل هذا من دون أن تتأثر زينة وجهك».

فقالت بصوت خافت: «ربما...».

نظر إلى وجهها التي تعلوه المشاعر المحمومة، وضحك راضياً: «لكنني سأقاوم لهفتي حتى تمسحيها عن وجهك».

- إذن، ستنتظر وقتاً طويلاً.

وانتزعت نفسها بعنف مبتعدة عنه، ثم ترددت. عليها أن تسأله عن زائرة الليلة البارحة سواء شاءت ذلك أم لا: «رأيت المرأة التي جاءت لزيارتك الليلة الماضية وتساءلت عمّن تكون...».

جمد راوول في مكانه: «أي امرأة؟».

فاحمر وجهها: «شعرها طويل أسود... وهي جذابة جداً».

- آه، تلك المرأة..

وهزّ كتفيه بهدوء رائع من دون أن تتحرك أيّ عضلة في وجهه: «إنها موظفة عندي».

موجة الارتياح التي اكتسحت كيان هيلاري جعلتها تشعر

بالدوار. غباء منها أن تخاف من كل سمراء جميلة. وسمعت شخصاً في الغرفة المجاورة يوجه سؤالاً إلى راوول، فقال لها: «هيلاري، تقول الخادمة إنها لم تجد في حقيبتك سوى القليل من الملابس. أين بقية ملابسك؟».

عادت إلى الواقع بعنف وجمدت مكانها مذعورة. من الطبيعي أن يتوقع راوول امتلاكها لكثير من الملابس. ألا يفترض أن تكون زوجات الأغنياء مجنونات بالملابس الحديثة الطراز؟ ألا يفترض أن تكون غرفة الملابس تلك مليئة بالملابس؟ كيف لها أن تفسر فراغ الخزائن والأدراج؟

حاولت مذعورة أن تجد سبباً معقولاً لقلة ملابسها. وأخيراً هزت كتفيها: «حاولت أن أتخلص من كافة الملابس غير المرغوب فيها».

- لكن الخادمة تقول إن لديك ثوبين هنا فقط، يا عزيزتي.

عضت شفتها السفلى وأخفضت بصرها. لقد أصبح ذهنها صفحة بيضاء: «شغلتني بعض الأمور مؤخراً...».

طال الصمت، فنظرت إليه متوترة لتجد ملامحه جامدة.

بادلها النظر فتمتمت: «عليّ في الحقيقة أن أذهب للتسوّق».

- أظن أنك كنت تعيشين في مكان آخر.

فهتفت متوترة: «بالله عليك...».

- إذن، أوضحي لي بشكل مقنع سبب خلو خزانتك من الملابس.

تملكها توتر عنيف، وتنفست بعمق، وإذا بالإلهام ينزل عليها فقالت: «حدث بيننا خصام غبي لأن ذوقي في الملابس لم يكن يعجبك... وتملكني الغيظ منك، فألقيت بعيداً بكل ما لدي!».

أخذ ينظر إليها متأملاً: «يمكنني أن أتصور ذلك بعد ما عرفته

عنك من سرعة انفعال».

خفف كلامه من توترها، وسألته: «لماذا تحزم الخادمات أمتعتي؟ هل نحن ذاهبان إلى مكان ما؟».

- نعم. إلى قصر «كاستيلو ساباتينو»

www.elromancia.com

٥ - عروس زائفة

كان «كاستيلو ساباتينو» قصراً من القرون الوسطى، يقف منتصباً كالحارس مشرفاً على وادٍ مشجر قريب من الحدود الإيطالية. رأت بحيرة هادئة ذات مياه كالبلور تداعب أسفل الأسوار الحجرية العالية، بحيرة أشبه بمرآة تحت السماء الزرقاء وقرب جبال الألب التي توّجت قممها بالثلوج. كان القصر ومحيطه يحبسان الأنفاس لجمالهما. ولم تدهش هيلاري لأن راوول رضي بأن يتزوجها ليضمن حصوله على بيت أسلافه.

الطائرة المروحية التي استقلاها في جنيف حطت في المكان المخصص لها. حملها ونزل بها من الطائرة بسهولة، ثم أمسك بيدها ليسيرا الأمتار القليلة الأخيرة. رأته يعبس في الشمس ثم يخفض رأسه الشامخ وكأن أشعة الشمس المتألقة تؤذيه.

سالته بقلق: « هل انت بخير؟».

قال بصوت عميق وبنبرة مختصرة، بغيظ رجل لم يتعوّد التذمّر والشكوى: «أنا متعب قليلاً، ليس إلاّ».

وبعد لحظات صمت أردف: «ذهبت إلى مكتبي في الخامسة هذا الصباح...»

فوقفت جامدة: «ماذا... فعلت؟».

- أنا صاحب مصرف «ساباتينو» ولا يمكنهم التصرف من دوني. عليّ أن أتآلف مع الأحداث الجارية، وأطمئن إلى أن العمل مستمر

من دوني وأتصرف مع ما لا أفهمه.

- لا أستطيع أن أصدق أنك ذهبت إلى ذلك المصرف التعيس مع طلوع الفجر، حتى قبل انتهاء الأربع وعشرين ساعة راحة التي أمر بها الطبيب.

ورآها ترتجف غيظاً، فقال: «فعلت ما هو مفروض بيّ أن أفعله».

تأملت فكه الصلب الذي بدا وكأنه قُدّ من صخر. كان من العناد بحيث أوشكت أن تصرخ. بدت بشرته السمراء، في الضوء الساطع، بلون الرماد. بدا مرهقاً للغاية.

- في الواقع، ليس لديك أي احترام لصحتك.

كان راوول في هذه الأثناء يجتاز البوابة الكبيرة لمدخل القصر، فرمقها بنظرة قاسية بدا فيها فروغ الصبر: «هل تصورت حقاً أن بإمكاني أن أغيب عن المصرف من دون أن أعلن السبب؟ غيابي سيسبب ذعراً سينتهي بانهيار العمل».

سألته وهي ترى تقطيبة الألم بين حاجبيه: «وما هو السبب الذي أعلنته؟».

- قلت إن الحادث تسبب في إصابتي بازدواج الرؤية، وإن عليّ أن أريح نظري. وبهذه الطريقة سأتمكن من أن أتلقى المعلومات من مساعدي من دون أن أثير الفضول والتعليقات.

فقالت بإعجاب: «يا لك من محتال».

- وأضفت إلى ذلك أنني سأستغل الإجازة المرضية المفروضة عليّ من العمل واستمتع بإجازة مع زوجتي.

- يا إلهي.. وهل أدهشهم هذا؟

طرحت هذا السؤال وقد جف فمها، فالذهول الذي بدا على

أمبرتو حين سمع أن راوول متزوج جعلها تدرك أنه أبقى خبر زواجه سراً عن الجميع باستثناء عمته بوتيستا. لذا فلا بدّ أن أي إشارة إلى زواجه ستدهش الموظفين في المصرف.

قال: «إن دهشتهم مبررة، فأنا لم أتعود أخذ إجازات. بالمناسبة، كان عليك أن تناقشي معي مسألة منع تحويل أيّ اتصالات هاتفية إليّ».

فاحمر وجهها: «كان عليك أن تصرّ أن بإمكانك أن تجيب عليها».

- على المدى القصير، كانت فكرة حسنة.

وتوقف ليردّ تحية مديرة المنزل وهي امرأة في منتصف العمر خاطبها باسم «فلورنزا». جمد عند أسفل السلم الحجري، ثم قال بشيء من التعنيف: «ولكن لا تتصرفي مرة أخرى بالنيابة عني من دون أن تشاوري معي».

أغضبها تعنيفه هذا، ففتحت فمها لترد عليه بحدة لكنه ضغط بأصابعه على شفتيها فارتجفت وقد شعرت فجأة بالشوق إليه، وعاد يقول: «أنت تعلمين أنني على حق..».

- لا. لا أعلم أنك على حق. ما الذي حدث؟

حدق إليها بنظرات شاردة، قبل أن يعبس ويعود فيحدق إليها سائلاً بقوة: «أنت ركضت خلفي في الشارع...».

عند هذا التصريح الغريب، نظرت إليه من دون أن تفهم. ولكن عندما ضغط بيده على جبينه متشككاً، قالت: «راوول.. إجلس، بالله عليك».

فقاطعها بخشونة: «كلا...».

طوّق خصرها النحيل مضيفاً بذراعه: «سنصعد إلى الطابق العلوي

لنتحدث عن هذا على انفراد».

فهمست وقد شعرت بالتوتر: «نتحدث عن ماذا؟».

فهمت عندئذ قوله: «أنت ركضت خلفي في الشارع». فعادت تقول: «لقد تذكرت لتوّك شيئاً من الماضي.. كما تذكرت شيئاً عني...».

وتملكها حرج بالغ بينما قال: «بدا الأمر وكأن شخصاً لوّح أمامي بصورة قديمة..».

وبحركة دلّت على فروغ صبره، دفع باباً فانفتح على غرفة استقبال أنيقة. ورغم أن هذا المقدار الضئيل من الذكريات الضائعة حيّره، إلاّ أنه أكسبه قوة. وتابع يقول: «كنت تحاولين أن تعيدي إليّ بخشيشاً منحته لك..».

- نعم..

وشبكت يديها معاً ثم فكتهما ثم أعادت شبكهما، بينما أخذ هو يحدق إليها بحيرة وعدم تصديق: «لماذا أعطيتك بخشيشاً؟ هل كان ذاك مزاحاً أو ما شابه؟».

أصبح وجهها بشحوب وجوه الموتى وشعرت وكأنها تلقّت صفعة. رأت الهوة تتسع بينهما، فهي ليست كما توقع أن تكون، وهي ليست ولن تكون جزءاً من عالمه المترف.

قالت: «كنت قد حلقت لك شعرك لتويّ».

- شعري؟

وحدّق إليها وكأنها مهرّج أمامه فيما زمت هي شفتيها وأومأت برأسها: «أنا.. أنا حلاّقة. وهذا «البخشيش» الذي دفعته، كان في أول لقاء لنا...».

- يا إلهي! يمكنني أن أتذكر ما شعرت به وفكرت فيه في تلك

اللحظة في الشارع! أثرت فيّ رغبة قوية للغاية. أردت أن أجرّك إلى سيارتي الليموزين، ومن ثم إلى الفندق حيث نمضي معاً عطلة نهاية أسبوع كاملة.

احمر وجهها، ليعود إلى طبيعته لاحقاً ببطء وألم. حسناً، على الأقل لم يحاول أن يزيّف عواطفه بل اعترف بصراحة بما شعر به وعيناه العنيفتان مسمرتان عليها. عليها أن تكون شاكرة لأنه وجدها جذابة، رغم أنه كان من الجفاء والفظاظة بحيث لم يظهر ذلك. لكنها لم تكن شاكرة بل غاضبة مجروحة. ما الذي تصلح له برأيه؟ تمضية عطلة نهاية أسبوع معها؟ أهذا كل ما تصلح له؟ أيظنها مومس تذهب مع رجل تكاد لا تعرفه إلى الفندق؟ وشعرت بألم مبرّح. كانت لترافقه لو طلب منها ذلك. لعلها ما كانت لتفعل ذلك في ذلك اليوم الأول لتعارفهما لكن في ما بعد بعد أن سلب عقلها وقلبها بحيث أصبحت مستعدة للقيام بكل ما يلزم للحصول عليه. وخنقتها الدموع.

اتكأ إلى الجدار خلفه، محاولاً بجهد للتحكم في الإرهاق الذي يشعر به، وقال: «هل يضايقك كلامي؟ ما كان لي أن أقول ذلك».

فقالت بمرح زائف: «لا تقلق لذلك، فأنا لست مرهفة الإحساس. أرجوك أن تستلقي فترة فأنت تبدو متعباً».

فك ربطة عنقه وفتح قميصه ثم سار إلى الغرفة الملاصقة لهذه الغرفة. قالت له من عند الباب: «أظن أن عليّ أن أستدعي طبيباً».

- لا شيء يستدعي ذلك. كفى اهتماماً لا داعي له.

أخذت تنظر إليه وهو يستلقي على سريره من دون أن يخلع حذاءه حتى، ثم جذبت الستائر على النوافذ.

قال وعيناه نصف مغمضتين: «كان عليك أن تعلمي أنني من يقرر

لنفسي، يا عزيزتي».

- هذه ليست مشكلة.

تكلمت بحنان وعادت لتجلس على السرير ثم شبكت أصابعها بأصابعه. رغبته في أن يتخذ قراراته بنفسه ليست مشكلة ما دام قراره ينسجم مع استنتاجاتها.

- ما قلته... إن وميض الذاكرة ذاك فاجأني ما جعلني غير مهذب.

فأجابت بصوت هادىء، حلو كالعسل: «لم تكن غير مهذب بل جلفاً نوعاً ما. لكن سأسامحك هذه المرة لأنك لطالما كنت أكثر الرجال الذين عرفتهم شاعرية».

استرخت قبضته ونظر إليها مذهولاً: «شاعرية...؟».

حتى في حالة الضياع التي تتملكه، التوى فمه الواسع ساخراً من كلامها وهو يتابع: «هذه مزحة منك...».

- كلا، إنها ليست كذلك.

طوقها بذراعه وتمتم ناعساً: «يمكنك أن تبقي هنا حتى أنام».

أوشكت أن تقترف غلطة فتسأله إن كانت أمه قد اعتادت أن تفعل ذلك. لكنها، والحمد لله، تذكرت أن مثل هذه الأمور لم تحصل في طفولته، فقد كان عمره سنة واحدة عندما تركته أمه هاربة مع عشيقها ولم تعد حتى لزيارته. عندما لم يستطع أن يتجنب أسئلتها الكثيرة، أخبرها هذا في جملة واحدة مختصرة لكنها انغرزت في قلبها الحنون.

عندما استغرق في النوم، نزلت إلى الطابق السفلي وتناولت وجبة لذيذة في غرفة طعام رائعة مؤثثة بشكل فخم. لم يسمح قلبها لأفكارها بأن تتحوّل إلى أي موضوع آخر غير راوول. بدا واضحاً

أنها ستعود إلى وطنها قبل أن يمضي وقت طويل. وبدلاً من أن تسعدها هذه الفكرة، شعرت بحزن لا يحتمل. فذلك يعني أنها ستفقد راوول مرة أخرى. لقد تذكر اليوم تفاصيل من السنوات الخمس المفقودة من ذاكرته. حدث ذلك بشكل أسرع مما توقعت.

حين قال الدكتور ليرذر إن فقدان الذاكرة لدى راوول مؤقت اعتبرته متفائلاً جداً لكنها ترى الآن أنه كان على حق، قريباً سيتذكر راوول أحداث السنوات الخمس التي نسيها. بعدئذ لن يحتاجها. لكن، هل سبق وأن احتاجها من قبل؟ أم أن هذا مجرد تمنيات منها؟

تكوّمت في كرسي قرب سرير راوول، تتأمله أثناء نومه. حدّثت نفسها بأنها ستحرص من الآن فصاعداً على ألاّ تكون علاقتهما جسدية. فعندما يتذكر حقيقة زواجهما، كيف ستكون نظرته إليها؟ ألن يجد اكتمال زواجهما غريباً؟ هل سيهتم بها على الإطلاق؟ وهمس صوت في داخلها مواسياً بأنه رجل، أيّ أنه لن يضيّع الكثير من الوقت في التساؤل عما جعلها تقدم على بعض التصرفات المعيّنة. لا... جلّ ما سيرغب فيه هو العودة إلى حياته الحقيقية. لعله سيرتاح عندما يعلم أنه ليس بحاجة لأن يعتبر نفسه متزوجاً، بحسب الشروط المتفق عليها. عندما يستعيد ذاكرته كلياً، سيضحك كثيراً للمنحى الذي اتخذته الأحداث.

عندما استيقظت هيلاري، كانت في السرير وضوء النهار يتسلل من بين الستائر ليقع على رأس راوول المنحني ينظر إليها.

تمتمت وقد فوجئت: «كم الساعة الآن؟».

فقال وعيناه اللامعتان تتأملانها: «السابعة وخمس دقائق. لقد نمت طويلاً، وأشعر أني...».

فقاطعته: «لا أتذكر أنني نمت في سريرك».

- لم تفعلي، بل كنت نائمة على كرسي. ما كان لك أن تقلقي عليّ إلى هذا الحد، يا عزيزتي. إنني أجيد رعاية نفسي.

سرت نبرته الحنون في كيانها، ومن دون وعي منها وجدت نفسها تندس فيه. لكنها ما لبثت أن ذعرت لتصرفها هذا بينما يُفترض بها أن تقطع أيّ علاقة بينهما. وشعرت بتعاسة فجلست منتصبة بحركة مفاجئة ومن دون تردد أعادها راوول إلى وضعها الأول، وعيناه تعكسان جوعاً من دون خجل: «لن تذهبي إلى أي مكان، يا «سيدة ساباتينو».

مخاطبته لها بلقب الزوجة زاد من ألمها.

- ولكن...

- أنت مضطربة جداً هذا الصباح ولكن من غير المسموح لك أن تغادري السرير قبل أن أسمح بذلك.

عندما رفعت بصرها إلى وجهه الوسيم، انتفض قلبها وشعرت بالوهن والشوق.

أخذ قلبها يخفق بسرعة فقال راضياً بعد أن تأملها: «أنت تريدينني يا جميلتي».

- نعم...

لم تستطع أن تصدق كيف فقدت قدرتها على التفكير، فكيف بقدرتها على مقاومة شعورها؟ تلهفت إليه، وراح جسدها يحترق بفروغ صبر، ما جعلها تخمد ذلك الصوت الخافت في أعماقها الذي يحذرها من أنّ ما تفعله خطأ.

واستمتعت بعواطفه المشبوبة واحتضنت رأسه أسود الشعر وتخللت شعره الكث بأصابعها لتمرّ بيديها بعدئذ على كتفيه العريضتين.

- أنت تجعليني جائعاً إليك للغاية.

رفعت بصرها إليه، معجبة بجمال رجولته. تملّكتها موجة من الحب والرضى، كما اغرورقت عيناها بدموع السعادة. راح يقاوم تفحصها الدقيق له وحمرة الخجل على بشرتها العاجية. لكنها لم تستطع التوقف عن التحديق إليه. كانت وجنتاه عاليتين وملامحه تعكس الكبرياء. كما أنّ وسامته مذهلة بالرغم من لحيته التي لم تحلق منذ يومين.

همست وهي ترتجف، واضعة أصابعها على فمه: «وسامتك تحبس أنفاسي...».

أمسك بيدها ثم أخذ يحدق إلى أصابعها بدهشة: «أين خاتم الزواج؟».

تملكها الذعر. كان عليها أن تتذكر أن الزوج يتوقع أن يرى خاتماً في إصبع زوجته.

- أنا... لم أشأ أن ألبس خاتماً.

اتكأ إلى الوسائد خلفه بعنف: «لِمَ لا؟».

احمر وجهها وقالت متلعثمة: «كنت... ظننت أن «المحبس» تقليد قديم. لا أفهم لما عليّ أن أهتم...».

- لن أقبل هذا العذر. لقد تزوجتك وأتوقع منك أن تلبسي خاتم زواج.

شعرت بالذعر لاضطرارها إلى الاستمرار في الكذب لتغطية ادعائها، ولم تستطع مواجهة عينيه: «سأفكر في ذلك».

قال وهو يقفز من السرير: «لا، لن تفكري في ذلك. سأشتري لك خاتم زواج وستلبسينه وتنتهي القصة».

عندما وصل إلى منتصف الغرفة وقف والتفت إليها. بدا وجهه

جامداً وعيناه متحديتين حين قال: «أتعلمين؟ لم تخبريني قط لما لا تزال زوجتي عذراء...».

قالت بلهجة دفاعية متوترة وهي تجلس في السرير ممسكة بالملاءة تشدها من حولها: «ولن أخبرك طالما تتحدث إليّ بهذه اللهجة».

- عليك أن تتصرفي بشكل أفضل، يا عزيزتي.

فردت عليه بالإيطالية بعنف: «لا. ليس عليّ هذا. عندما تستعيد ذاكرتك ستدرك أن ما من غموض يحيط بعدم خبرتي...».

- هل هذا صحيح؟

- كما لن تعتبر الأمر مهماً للغاية.

- أخبريني بأمر واحد فقط. لماذا تزوجتك؟

جمدت لحظة، ثم قالت بغموض: «تزوجتني للأسباب المعتادة كلها...».

- أتعنين أنني وقعت في غرامك؟

- لن أقول شيئاً.

ثم عادت ففكرت في أن تقول ما يتوقع أن يسمعه فينتهي هذا الموضوع.

- لا بأس. لقد وقعت في غرامي.

استدار وتوجه نحوها بتوتر واضح: «إذن، وقعت في شرك الحكايات الخرافية؟».

فقالت بشيء من التوتر هي أيضاً: «وما الذي يمنع ذلك؟».

فانحنى يرفعها عن السرير: «لا شيء. وقعت في شرك الحكايات الخرافية»

على مائدة الفطور في الفناء المغمور بأشعة الشمس والمزين

بمختلف أنواع الأزهار والنباتات، سألت هيلاري راوول عن تاريخ القصر. بدا واضحاً لها غرامه بكل حجر مر عليه الزمن. حاولت ألاّ تفكر في الأكاذيب التي أخبرته بها منذ فترة. لقد كف عن طرح الأسئلة المربكة ولم يعد يقلق من ناحية علاقتهما، وهذا هو الأهم، فالطبيب نصحها بألا تخبر راوول ما يقلقه. ألا يعني هذا أنها لم تخطىء؟ إن بعض الأكاذيب البيضاء الصغيرة لا تسبب أي ضرر.

قال وهو يدخل إلى الصالة: «لقد رتبت لك مفاجأة».

- ما هو نوعها؟

- أظن أن الوقت حان للاهتمام بمشكلة الملابس.

قالها برقة ثم فتح باباً يؤدي إلى غرفة استقبال فسيحة مزدحمة.

كان راوول قد أرسل دعوات إلى عدد من مصممي الأزياء لزيارة قصره مع بعض الأثواب. أُدخلت هيلاري إلى الغرفة المجاورة حيث أُخذ قياسها. وتملكها الذعر. كيف تسمح لراوول بأن يشتري لها الملابس؟ لكن كيف تقنعه بأنها ليست بحاجة إلى أي ملابس جديدة بينما رأى بنفسه مدى حاجتها إليها؟

وبعد دقائق قليلة عادت إلى راوول وهي ترتدي بذلة من أحدث الموديلات.

أخذ راوول يتأملها. لون بذلتها الفيروزي أبرز جماله شعرها الأشقر الفضي، بينما أظهرت السترة القصيرة المحكمة على جسدها، والتنورة الواسعة، قوامها المذهل بخصرها النحيل ووركيها البارزين فضلاً عن ساقيها المتناسقين. ولمعت عيناه باستحسان الرجل للأنثى، وتمتم هامساً في أذنها: «لذيذة».

ولأول مرة في حياتها، شعرت هيلاري بأنها تستحق الاهتمام.. وتبدد شعورها بالنقص إزاء استحسان راوول لها. احمر وجهها

خجلاً لكنها، وفي الوقت نفسه، رفعت رأسها بزهو. عندما يبدي راوول إعجابه بها تتلاشى عقدة النقص لديها من قصر قامتها وبروز مفاتنها.

منذ تلك اللحظة، أخذت هيلاري تستمتع بتخيّل أن راوول أصبح عالمها الوحيد. وأخذت تقيس ثوباً بعد ثوب. كانت أقمشة الملابس رائعة الملمس، وكانت المرايا الطويلة المذهبة على الجدران تعكس صورتها بشكل لم تستطع معه أن تميز نفسها. رأت نفسها ترفل في ثوب سهرة رائع وفي بذلة مذهلة، وسلسلة من الأثواب القصيرة الجميلة بشكل لا يصدق. كان كل ثوب يترافق مع حقيبة وحذاء يناسبانه. شعرت وكأنها في حلم رائع، إذ تضافر الجميع ليشجعوها على أن تمارس لعبتها المفضلة وهي ارتداء الملابس وتبديلها تماماً كما كانت تفعل وهي طفلة.

وخلال ساعات معدودة أصبح لديها من الملابس أكثر مما اقتنته طوال حياتها.

كانت تعلم أنها لن تلبس معظمها، وحدّثت نفسها بأن راوول يمكن أن يعيد الملابس إلى المتجر حالما تعود إلى وطنها.

قالت له وهي تلهث من الإثارة، بعد أن بقيت مرتدية تنورة تبنية اللون وبلوزة من دون كمين: «لن أتمكن من ارتداء كل هذه الملابس».

فقال: «أنت زوجتي ويجب أن يكون لديك كل ما تريدينه».

انقبض قلبها والتمعت عيناها شاعرة بالألم إذ كانت تدرك أنّ هذا ليس سوى ادعاء.

- هيلاري؟

- أنت في منتهى الكرم نحوي.

- ألا تعرفين كيف تردين الكرم؟

ورمقها بنظرة معبّرة ترافقت مع ابتسامة شيطانية من فمه الجميل.

جف فمها وأخذ قلبها يخفق بعنف. كان رائعاً إلى حد جعلها ترتجف. كان تأثيره فيها هائلاً.

وتابع يقول بصوت مثقل بالمشاعر: «وإذا كنت لا تعلمين، فيمكنني أن أجعلك تدركين ذلك بالإشارة، يا حبيبتي».

كلامه هذا جعلها تشعر بالشوق إليه وصدمها رد فعلها هذا فأخفضت بصرها مقاومة ضعفها قدر إمكانها. لكنه جذبها إليه، وعندما شعرت بحرارة جسده توهج وجهها احمراراً، رغم أنها أرادت أن تذوب فيه بكل خلية من كيانها. وتعلقت عيناه بعينيها: «تبدين بريئة إلى حدّ لا يصدّق. ما أريده أكثر من أي شيء آخر في العالم هو أن تبقي بين ذراعيّ. أظنني تزوجتك لأنك لا تنفكين تدهشينني!»

قالت هيلاري بصوت مرتجف وهي تمرر إصبعها على الخاتم الذي وضعه في إصبعها قبل أن تنظر إلى راوول حالمة: «مذهل! رائع! لا أعرف ماذا أقول.. لم أكن أتوقع هذا».

إنه خاتم زواج. وتأثرت حتى الأعماق برغبته في أن يراها تضع الرمز الذي يدل على عهودهما الزوجية. قال بهدوء وعيناه تتألقان: «لن أفشل في شيء، يا حبيبتي. أريد لزواجنا أن ينجح».

طعنة من الإحباط مزّقت أحلامها. فهي منذ أربعة أيام لم تكن تفكر في المستقبل لأكثر من دقيقة واحدة. لقد استمتعت بكل لحظة أمضتها مع راوول، حتى أن حبها له ازداد. كان يشعر بمرارة الإحباط لأنه لم يستعد ذاكرته بعد، وتلك الذكرى المحدودة التي عاودته لم تزده إلا فروغ صبر، لكنه أظهر ذكاءً غير عادي في

مواجهته لوضعه الجديد ما جعلها تدرك أكثر من أي وقت مضى مدى ثقته بنفسه وانضباطه. حوّلت اهتمامها عن ملامحه البالغة الوسامة، ثم تظاهرت بتأمل ما حولها. كان يوماً رائعاً، والمناظر من حولها مذهلة. كانا يجلسان في شرفة مطعم خاص يقوم في مكان مرتفع مشرف على بحيرة «لوسيرن». كانت السماء الزرقاء صافية والمدينة التي يعود بناؤها إلى القرون الوسطى تمتد في الأسفل.

- هيلاري..؟

لفت راوول انتباهها عابساً عندما اقترب منهما رجل كبير الجسم أشقر الشعر جاد الملامح، ثم وقف على بعد مترين منهما قائلاً بدهشة: «راوول؟».

نهض راوول وقد ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة لتحيته فيما ذعرت هيلاري وهي ترى أن القادم هو «بول كوريرو» الشاهد الوحيد على زواجهما. تملكها الرعب وشلّت أطرافها وهي ترى المحامي ينظر إليها بإمعان. هذا رجل يعلم أنها زوجة زائفة، وأنها أخذت أجراً لتمثل دور العروس في القداس الزائف. ولا بد أنه مدهوش لرؤيتها في سويسرا برفقة راوول!

٦ - لن أسامحك أبداً!

الإحساس بالخطر جعل قلبها يخفق بعنف. وأخيراً، قررت أن لا خيار أمامها سوى أن تستعمل الوقاحة للخروج من هذه الورطة.

- أنا وآنيا نقيم مع بعض الأصدقاء.

قال بول كوريرو هذا لراوول الذي كان يقبل وجنتي امرأة حامل جميلة حمراء الشعر تقف بجانب محاميه.

التفت راوول برأسه المتغطرس إلى هيلاري متسائلاً عما منعها من مشاركته في تحية القادمين. فنهضت والعرق يتصبب منها وقد رسمت على فمها المتوتر ابتسامة، وتقدمت نحوهما بساقين كالخشب.

- هيلاري.. خسارة لندن مكسب لنا.

منحها بول كوريرو ابتسامة ناعمة أرسلت رعشة في كيانها، وكادت تجفل لهذا السخرية. ووقفت كمجرم ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه. لكن راوول، ولحسن الحظ، حوّل اهتمام محاميه عنها بالحديث معه بصوت خافت. وعندما أخذ الرجلان يتمشيان على بعد أمتار، اقتربت رفيقة بول منها وقالت لها وهي تقيّمها ببرودة: «أنا آنيا زوجة بول».

- نعم.

كانت هيلاري من التوتر بحيث لم تستطع أن تفكر في أيّ ردّ فعل على هذا التقييم العدائي.

اختلست نظرة إلى راوول وبول، وتساءلت بفزع عما يتحدثان عنه. وتملكتها رغبة ملحّة في الهرب، فتمتمت معتذرة ثم توجهت نحو استراحة السيدات.

كيف يجرؤ بول وزوجته على النظر إليها وكأنها مجرمة؟ كانت منزعجة ومعدتها تغلي. فتحت الماء البارد على يديها بينما راحت تكافح لتستعيد رباطة جأشها. ما قامت به كان لمصلحة راوول.

لقد أحبطته تلك الهوة التي تفصله عن العالم خمس سنوات، لكنه نجح في مواجهة الأمر تماماً! ولكن هل كان بول كوريرو يخبر راوول في هذه اللحظة أن هيلاري وزواجهما الظاهر زائفان؟ خرجت هيلاري من استراحة السيدات لتجد بول كوريرو في انتظارها، فأصابها شحوب بالغ.

سألها الرجل الأشقر: «ما هي لعبتك؟ لقد أوضح لي راوول لتوه سبب عدم ظهوره منذ حادث الاصطدام».

فقالت: «يسرّني أنه اتخذ شخصاً آخر موضعاً لثقته».

وتساءلت هيلاري إن كان راوول يعلم الآن أنها ليست بالزوجة التي ادعتها، واعتصر قلبها.

قال بول كوريرو بصوت خافت خشن: «لا تعامليني وكأنني أبله. رئيس فريق الأمن لدى راوول اتصل بي في الأمس ليسألني النصيحة. تصوري ذهولي عندما علمت أنك جئت إليه في المستشفى مدعية أنك زوجته السيدة ساباتينو! هذا اللقاء ليس صدفة، بل قطعت إجازتي لكي أحضر إلى هنا. يمكنك أن تؤذيه بهذا الشكل».

أخذت هيلاري ترتجف من احتقاره الموجع هذا. هل ثمة فريق أمن يعمل على حراسة راوول؟ لقد كانوا من الحذر والتحفظ بحيث لم تعلم بوجودهم. وقالت: «لم أقم بما يؤذيه. هل أخبرت راوول

الحقيقة عن زواجنا؟».

فأجاب ساخراً: «في المطعم؟ أنوي أن أزوره في القصر عصر اليوم...».

أمسكت هيلاري بكمه متوسلة: «دعني أخبر راوول بنفسي. أمنحني فرصة حتى الغد لأتدبر الأمر».

أنذرها بول كوريرو مظهراً عدم ثقته بها: «كلا. سأمنحك فرصة حتى هذا المساء. وإذا لم تفي بوعدك، فسأقوم بذلك بدلاً منك».

احتاجت إلى قدر كبير من الشجاعة لتتمكن من مواجهة نظراته المتهمة وهي تقول: «أنا لست كما تظنني. أنا أحبه ولطالما أحببته...».

فأجفل المحامي وقاطعها: «اعلمي على أيّ حال أنه لن يغفر قط هذا النوع من الخيانة».

عادت هيلاري لتقف بجانب راوول ورأسها يدور فيما كانت آنيا تتوسل إليه أن يلقي خطاباً في حفل خيري. انضم بول إلى زوجته قائلاً إنهما تأخرا عن موعدهما، فقطع راوول حديثه وأمسك بيد هيلاري يقودها إلى سيارته الليموزين وهو يقول مقطباً: «مزاج بول غريب. لماذا بدا متضايقاً؟».

فتمتمت بضعف: «آه، أنت تعرف بول».

- نعم. أعرفه جيداً، وهو لا يجيد قط فن الخداع. أحسست بنوع من عدم الاحترام في تعامله معك، ما جرحني وأزعجني.

عذّبها الشعور بالذنب لكنها لم تقل شيئاً. لم تجد ما تقوله في مثل هذه الظروف. كان راوول قوي الملاحظة، وقد لاحظ عداء محاميه. على أيّ حال، سيعرف راوول الحقيقة قريباً ويفهم لماذا لم يستطع بول كوريرو أن يخفي ازدراءه. وتملكها مزيج من الخوف

واليأس. كيف يمكنها أن تخبر راوول أن زواجهما لم يكن حقيقياً؟ كيف يمكنها أن تواجه هذا الأمر؟

وعندما توقفت السيارة أمام صالون خاص للتجميل، تذكرت هيلاري أنها أخذت موعداً لتصفيف شعرها بالأمس.

قررت التخلّص من الأطراف الوردية لأنها تضفي عليها مظهراً صبيانياً نوعاً ما وتساءلت عما يجعلها غير صادقة مع نفسها. لقد اختارت اللون الوردي هذا لتبدو أكثر أناقة أمام راوول. ولكن ما الفائدة الآن؟ وما الهدف عندما تنهار أسس عالم أحلامها؟؟

- هيلاري؟

قالت من دون أن تجرؤ على النظر إليه: «هل يمكننا أن ندور بالسيارة لدقيقة أو اثنتين؟».

كانت من الاضطراب بحيث لم تستطع أن تفكر بشكل منطقي، لكنها لم تشأ أن تترجل من السيارة وتتركه.

(الحقيقة مؤذية). من هو صاحب هذا القول؟ ليس لديها فكرة. كل ما تعرفه هو أنها، وطوال الأسبوع الماضي، حاولت أن تعيش حلمها بكل حماقة. دفنت شكوكها وتناست وخز ضميرها واستسلمت للحكايات الخرافية بادعائها أنها زوجة راوول. كانت سعيدة للغاية، سعيدة أكثر مما ظنت يوماً أنها ستكون.. لأن الرجل الذي تحب عاملها وكأنها زوجته. المشكلة تكمن في أنها لم تكن كذلك، تمنيات العالم كلها لا تستطيع تغيير هذه الحقيقة.

لقد دمّر بول كوريرو ادعاءها المحزن كما عليها أن تدرك أن عملها هذا سيعتبر عملاً أنانياً. لكنها لم تقصد قط أن تؤذي أو تقلق أحداً. كما أنها حاولت أن تخفف من الضرر الذي لحق بحبيبها. على أيّ حال، مجرد ذكرى نظرة بول كوريرو إليها جعلت العرق

البارد يتصبب منها. ذاك الحلم الجميل لم يستمتع به سواهما، هي وراوول. وتملكها اضطراب هائل.

سألها راوول بشيء من فروغ الصبر: «هل ستلغين ذلك الموعد؟».

كان حازماً للغاية ويمكنه أن يجيب عن أي سؤال عادي قبل أن تنتهي من طرحه. ماذا سيكون شعوره نحوها عندما يدرك أنها شجعته على مشاركتها الحياة معها بالكذب؟ أتراه سيحتقرها لتصرفها هذا كما لمّح بول كوريرو؟ هذه الفكرة آلمتها للغاية. لكنها بدأت تدرك أكثر وأكثر أن ادعاءها هذا تجاوز الحد.

- ماذا؟

- لا بأس. لقد قررت الآن أن أصفف شعري!

ونظرت إليه بضحكة مصطنعة.

بدا في عينيه اللامعتين مزيج من العجب وفروغ الصبر من أسلوبها الغريب مقارنة مع طريقته في التفكير. ترجّلها من السيارة لم يخفف عنها وهي تراه بهذه الروعة المدمّرة. وبحركة مفاجئة تقدمت منه وقبلته بحرارة بالغة ثم تمتمت وهي ترتعش: «كانت أياماً قليلة رائعة...».

بعدئذ، اختطفت حقيبة يدها وخرجت من السيارة قبل أن تربكه وتربك نفسها أكثر.

في صالون الحلاقة، شعرت وكأن جداراً من زجاج يفصلها عن النشاط المألوف لديها. شعرت وكأنها فريسة صدمة. لقد أدركت أخيراً لماذا كان ذهنها يكره أن يواجه الواقع ويتقبله لكن الوقت حان كي تخرج من حياة راوول مرة أخرى. كما أن عليها أن ترحل بسرعة. ما الهدف من العودة إلى القصر لكي تخبر راوول بما

فعلت؟ هذا سيعرضها لمواجهة غير سارة، فما مصلحة أي منهما في ذلك؟

قررت أنه من الأفضل أن تستقل الطائرة إلى لندن مباشرة. وكانت، لحسن الحظ، تحمل جواز سفرها في حقيبة يدها. عندما تنتهي من تصفيف شعرها يمكنها أن تتوجه إلى المطار في لوغانوا. لم تحضر معها إلى سويسرا سوى أثواب قليلة وما ستتركه خلفها لن يفتقده أحد. ستترك لراوول رسالة في سيارته تشرح له فيها الأمر. أليس هذا هو الصواب؟ عندما يدرك حقيقة ما فعلت.. سيذهل ويغضب وربما سيعتبر نفسه محظوظاً لأنه تخلّص منها. وأي رأي حسن قد كوّنه عنها سيتحطم كلياً.

خنقتها الدموع. لماذا ساءت الأمور إلى هذا الحد؟ في البداية، حاولت أن تساعد راوول وحسب لكنها وبشكل ما تورطت إلى حد جعلها تصمّ أذنيها عن نداء العقل. لقد سمحت لنفسها بأن تجرفها الأحلام. لكنها الآن، وعندما أصبحت مكرهة على أن تتساءل عما سيكون عليه رأيه في سلوكها، أدركت أنها تجاوزت حدود الصدق والمنطق. أزعجتها هذه الحقيقة لأنها لم تتعوّد قط أن تنكر أخطاءها. لكنها ستتلقى أسوأ عقاب بالنسبة إليها، وهو حقيقة أنها لن ترى راوول مرة أخرى...

* * *

- ألم تأخذي فترة راحتك بعد لتأكلي شيئاً؟

طرحت سالي هذا السؤال على هيلاري التي كانت تضع مجموعة من المناشف الحائلة اللون والمغسولة حديثاً على الرف خلف المغسلة، فأجابتها: «لست جائعة...».

- حسناً، يفترض بك أن تجوعي. لا يمكنك أن تعملي طيلة

هذه الساعات ومعدتك فارغة. تبدين متعبة للغاية.

كانت زميلتها في الصالون تتحدث إليها وقد بان القلق على وجهها الحنون.

- كفى قلقاً عليّ. أنا بخير.

وأحنت هيلاري رأسها ثم مضت تكمل عملها بنشاط واهتمام بالغين وكأن حياتها كلها تعتمد عليه. في الواقع، كانت حياتها كلها تعتمد بشكل عام على العمل، وذلك لكي تحوّل أفكارها عن الماضي المؤلم. كانت تعلم أن الظلال تحيط بعينيها وأنها تبدو في حالة سيئة. لقد فقدت شهيتها على الطعام كما لم تعد تنام جيداً. كانت تعيسة للغاية لكنها حاولت أن تتصرف بشكل طبيعي وأن تستعيد حيويتها.

ما حدث قد حدث، ومرّ أسبوعان على مغادرتها سويسرا. بقي راوول محور عالمها مدة سبعة أيام، لكنه لم يعد كذلك الآن ولن يعود، وعليها أن تتعوّد على هذا الواقع. ما هي عليها تقبّله هو أن ما عاشته مع راوول، كان زائفاً، غير حقيقي. وما وكان هذا الدرس أقسى ما عليها أن تحتمل.

قالت سالي بصوت خافت: «موعدك للساعة الحادية عشرة حضر.. وهو شديد الوسامة.. يا لك من محظوظة...».

رفعت هيلاري رأسها لتجد راوول يقف وسط القاعة. ارتجفت يدها فارتجّت زجاجة الشامبو الكبيرة التي تحملها وأخذت تنسكب في المغسلة.

تملكها اضطراب بالغ وهي تراه أمامها، فشهقت بصوت مرتفع، وتسمرت عليه عيناها الزرقاوان بلهفة بالغة. كان يرتدي بذلة كحلية بالغة الأناقة تبرز قامته الرائعة، وهو يميل برأسه المزهو جانباً، بينما

أعين الموجودين في المكان مركزة عليه متفحصة. كان ينظر إليها بعينيه الذهبيتين الداكنتين، مواجهاً نظراتها المستمرة عليه، وهو يتقدم نحوها بخفة وليونة الفهد.

همست: «هل أنت موعدي للساعة الحادية عشرة؟»

أومأ بالإيجاب وأخذ يتأمل جسمها المتيبّس مما جعل الاحمرار يعلو وجنتيها. كانت ترتدي قميصاً أبيض مقفلاً وبنطلوناً أسود مقلماً وتنتعل حذاء يبلغ ارتفاع كعبيه الدقيقين حوالى تسع ستيمترات.

هذا التأمل الساخر جعلها واعية بشكل محموم لجسدها ومعرفته الحميمة به. ومع ذلك لم ينظر إليها قط من قبل بمثل هذه الطريقة. لاحظت أن ثمة اختلافاً فيه لكنها لم تدرك ماهيته. كل ما أدركته هو أنها شعرت بالخجل.

قال بلطف ورقة: «علينا الذهاب إلى مكان يمكننا أن نتحدث فيه على انفراد»

لسبب لا تفهمه شعرت بدمها يجري بارداً في عروقها.

تمتمت تجيب وقد تملكها الجبن: «أنا... أنا في العمل».

- حسناً، لا أظن أنّ لديك مشكلة في أن يسمع زملاؤك وزبائنك ما سأقوله لك.

وأكمل كلامه بالإنكليزية وقد بدت الصلابة على وجهه: «وسأبدأ بالقول إن عملك، الذي أتذكر أنك أسسته بنقودي، لا يهمني».

كادت تنكمش حيث تقف، لكنها بعد جزء من الثانية ارتجفت لما عناه الكلام الذي كان يقوله. إذا تذكر راوول ما اتفقا عليه من ترتيبات، فهذا يعني أنه لم يعد يعاني من فقدان الذاكرة. يبدو أن راوول استعاد ذاكرته منذ تركت سويسرا، فتذكر السنوات الخمس الماضية، تماماً كما تنبأ طبيبه.

وارتجفت بقوة وهي تدرك أن راوول يتذكر الآن كل ما حدث بينهما.

توترت أعصابها، فالتفتت إلى سالي تسألها إن كان بإمكانها أن تحلّ مكانها حتى وقت الغداء. وقالت لراوول: «يمكننا أن نتحدث في الطابق العلوي. متى استعدت ذاكرتك؟».

- بعد أن اختفيت. ولا بد أن هذا ساعد في ذلك. على أيّ حال، جعلتني أعيش حياة هي ليست حياتي.

وكانت جملته الأخيرة ساخرة، فشحب وجهها من تلك السخرية الخالية من الإحساس. وفتحت باب شقتها: «يدهشني حضورك. لم أكن أظنك ترغب في رؤيتي مرة أخرى».

ساد الصمت بينما أغلق راوول الباب خلفه. كانت الردهة ضيقة ومعتمة، وقادته هيلاري منها إلى غرفة جلوس ومطبخ في الوقت نفسه. أخذ يتأمل الأثاث الرث، ومظهر الحقارة في المكان بشكل عام فبدا النفور على ملامحه.

- أنت أفقر مما تصورت، وهذا المكان قذارة. عندما اتصلت بك عمتي بوتيستا وأنا في المستشفى، لا بد أن الإغراء تملكك للاستفادة من المحنة التي تعرّضت لها.

فقالت وهي تصرف بأسنانها غضباً لهذه التهمة: «هذا غير صحيح. كيف يمكن أن تقول شيئاً كهذا؟ كل ما كان يشغل بالي هو حالتك الصحية. بالله عليك، ظننتك ستموت».

راح راوول يقرأ رسالة وجدها على الطاولة فأجفل: «هل أنت مديونة؟».

شعرت بالحرج وهي ترى أنه قرأ رسالة من المصرف تطالبها برد المبلغ الذي سحبته زيادة عن حسابها، فانتزعت الرسالة من يده:

«اهتم بشؤونك فقط».

قال برقة لاذعة: «كل ما يخصك يخصني أيضاً. ومعرفتي بهذا لمنحني شعوراً طيباً».

لم تستطع أن تفهم ما الذي يهدف إليه. على أيّ حال، حرصت على أن تدافع عن نفسها ضد اتهامه لها بأنها ذهبت إلى سويسرا كي تستفيد من ثرائه وتعيش على حسابه.

قالت: «دعني أشرح لك لماذا أنا مديونة. لقد أنفقت مبلغاً كبيراً إلى سويسرا، ودفعت مبلغاً لزميلة لي لتحل مكاني أثناء غيابي. وميزانيتي لا تحتمل هذا التبذير».

رفع حاجبيه الأسودين من دون أن يتأثر: «هل الفقر هو العذر الوحيد الذي دفعك لاغتنام الفرصة لإتمام زواجنا؟».

وانقبضت يداها: «أنت من أصرّ على ذلك..».

كانت سخريته واحتقاره أشبه بسكين طعنها في الصميم.

وتابع يقول: «أنت ممثلة غشاشة. كنت تعلمين تماماً ما تفعلين. إتمام زواجنا يمكنك أن تطالبي بمبلغ كبير ثمناً للطلاق».

بدا عليها الشحوب، وتملكها شعور تعيس بالمذلة والإهانة لشكوكه هذه. قالت: «لن أطالبك بشيء، سواء الآن أو في أي وقت آخر. لا أفهم لماذا تظن بي كل هذا. هل ارتكبت جريمة حين رغبت في رؤيتك بعد أن سمعت بما أصابك؟ أخبرتك في رسالتي أنني آسفة...».

أطلق ضحكة ساخرة جعلتها تجفل: «رسالتك بأسطرها الأربعة؟ حتى فيها لم تستطيعي أن تخبريني الحقيقة أو تعترفي بخداعك لي. لقد اختفيت من دون أن تتركي أي تفسير...».

- عندما أردت أن أفعل هذا، لم أجد ما أكتبه.

- لم ترغبي في أن تخبريني أنني كنت أعاشر امرأة غشاشة كذابة.

هتفت به غاضبة مجروحة الكرامة: «لا تصفني بهذه الأوصاف».

- كنت ممثلة جيدة، يا جميلتي.

وتعلقت عيناه الحاقدتان بنظراتها المعذبة من دون أن يتأثر: «لقد عرفت الطريق إلى قلبي.. طيلة الأسبوع كنت تحوّلين ذهني عن أيّ سؤال محرج أوجهه إليك».

لشدة ألمها، أمسكت بفنجان على المائدة وقذفته به: «لم يكن الأمر بهذا الشكل، ولم أتصرف على هذا النحو».

بقي جامداً مكانه بشكل مزعج، وكأن ابتعاده عن طريق ما قذفته به يجرح كرامته. واكتفى بأن رفع حاجبه عندما اصطدم الفنجان بالجدار قائلاً: «عندما تحرجين تصبحين كالأطفال لكن هذا لن يذيب الثلج الذي بيننا.. ولا حتى الدموع...».

فصرخت به بأعلى صوتها: «لن أبكي من أجلك! عليك أن تعذّبني لكي ترى الدموع!»

فقال عابساً: «الدموع تضايقني وكذلك المواقف العاطفية والأواني الطائرة في الغرفة. دعي عنك هذا حالياً. لكن إذا تصرفت بغباء أمام الناس مرة أخرى، سأغضب منك للغاية».

تصاعد توترها ما جعل حاجبها يخفق بألم: «أتصرف بغباء؟ ومرة أخرى؟ ما الذي تتحدث عنه؟».

أخرج شيئاً من جيب سترته الداخلي وألقاه أمامها على المائدة لتراه. كانت قصاصة من مجلة.

وتملكها الذعر وهي ترى صورة المرأة التي انهمرت الدموع على وجهها التعيس. إنها صورتها، وقد التقطت لها في ذلك اليوم الأخير

في سويسرا عندما كانت في المطار في لوغانو لكنها لم تلاحظ المصور. رأت تحت الصورة أسطر عدة بالفرنسية.

فسألته: «ماذا تقول الأسطر هذه؟».

فترجم لها وهو يصرف بأسنانه: «.. كل تلك الأموال وما زالت تعيسة».

شبكت ذراعيها على صدرها: «حسناً، أنا آسفة إذا أحرجتك، ولكن هذا يثبت أنني كنت حزينة للوضع الذي أصبحنا فيه..».

ألقى عليها نظرة كالثلج: «أصبحنا؟ ومن أوصلنا إلى ذلك الوضع؟ من ادعت أنها زوجتي؟ من كذبت لتجد طريقاً إلى بيتي وفتي؟».

ارتجفت وأفلتت ذراعيها وقد التمع في عينيها التوسل والإحباط: «اسمع. حاول أن تفهم أنني اهتممت بالأمر أكثر مما يجب. عندما ذهبت إلى سويسرا كنت أظن أن حالتك خطيرة فشعرت أنني أريد أن أراك. كما أنني صدقت أنك سألت عني..».

- ما الذي يجعلني أسأل عن امرأة لم أرها منذ حوالى أربع سنوات؟ امرأة لم تكن تعني لي شيئاً؟ كيف أسأل عن أي شخص وأنا غائب عن الوعي؟

حللت هذه الحقيقة في سرّها فبانت خيبة الأمل على وجهها. نعم، هذا غير معقول فعلاً. هل عمدت شقيقتها إلى إخبارها بكذبة بيضاء. أترى أيما اختلقت ذلك في محاولة ساذجة منها لتشجع أختها الكبرى على السفر إلى سويسرا لتكون مع زوجها؟

لكن وقبل أن تنتهي من تحليل هذا الاحتمال، عاد صدى كلمات راوول منذ لحظات، يدوّي في أذنيها بقسوة: (إمرأة لم تكن تعني لي شيئاً) هذا ما قاله. هذه فكرته عنها. لم تكن تعني شيئاً بالنسبة إليه.

حسناً.. ما الذي كانت تتوقعه؟ حناناً وعطفاً؟ لفترة قصيرة لا تتعدى الأسبوع جعله ادعاؤها يعتقد أنه يحمل لها بعض المشاعر، فتصرّف على هذا النحو. لكن ذلك الوقت الجميل انتهى الآن.

وإذ صممت على ألاّ تكشف له عن مدى شعورها بالألم، جاهدت لكي تعود إلى النقطة التي كانت تنوي أن تتطرق إليها قبل أن يطعنها في الصميم بقوله العفوي الصادق. قالت: «حذرني الدكتور ليرذر من أن أخبرك بما قد يزعجك...».

- لهذا تركتني أظن نفسي متزوجاً؟ ألم يخطر لك أن هذا الخبر مزعج للغاية لرجل يستمتع بعزوبيته؟

- أظنك ستقدّر حريتك الآن بعد أن أدركت أنك لم تفقدها قط..

قال وقد امتلأت عيناه احتقاراً: «أنا لم أفقد حريتي بل أنت سرقتها مني. ادعيت أنك زوجتي حتى سرت الشائعات بأنني متزوج، فلم أستطع إنكار ذلك، كما أن الصحف نشرت صورة لك».

اغرورقت عيناها بدموع الندم: «لا بدّ أنّ هذا سبب لك إحراجاً بالغاً...».

فقاطعها بجفاء: «أنا لا أشعر بالحرج بسهولة».

فتمتمت بتعاسة: «لا أظنك تدرك مدى أسفي».

- الأسف لا يكفي لإرضائي. أنت أردت حقاً أن تكوني زوجتي.

بدا الحرج على ملامحها، فنظر إليها ساخراً: «كنت متلهفة لأن تصبحي زوجتي فاستعملت الكذب والخداع لذلك».

تملكها شعور بالعار والغضب لإذلاله لها بهذا الشكل: «أعرف

أن تصرفي يبدو سيئاً، ولكن...».

فقاطعها: «لن أصغي إلى عذابك. تصرفك يبدو سيئاً لأنه سيء. لقد حوّلت حياتي الرائعة التنظيم إلى حياة تافهة عقيمة. طردت عشيقتي من أجلك..».

فحملقت فيه: «فعلت... ماذا؟».

- تلك السمراء الرائعة. كانت عشيقتي لكنني هجرتها لأنك جعلتني أظن نفسي رجلاً متزوجاً.

أغمضت هيلاري عينيها: السمراء الرائعة. كيف سمحت لنفسها أن تعتقد أن رجلاً مثل راوول ليس لديه امرأة في حياته؟ حينذاك، لم تشأ أن تتقبّل فكرة أنّ في حياته امرأة لأن قبولها هذا سيضعف موقفها. أليس هذا هو السبب الذي جعلها تفترض أن راوول حر من أي ارتباط؟ كيف تصرفت بهذه السذاجة والأنانية؟ لقد أفسدت حياته، وعذّبها الشعور بالذنب والخجل. وإذا به يقول: «بسببك أصبح سريري خالياً وعليك أن تملئيه مرة أخرى».

- ماذا تقول؟

وقطبت هيلاري جبينها عاجزة عن الفهم.

- ستعودين معي إلى سويسرا.

فبدا عليها الذهول: «ولماذا أفعل ذلك؟».

- أنا لا أترك لك أي خيار. هل أعطيتني أيّ خيار حين أخبرتني أنني متزوج؟

شحب وجهها وكأنها أصيبت بصدمة، وتجنبت نظراته: «لا أستطيع أن أجد سبباً يجعلك تطالبني بالعودة معك إلى سويسرا...».

- أريد أن أستغلّك كما استغلّيتني، ثم ألقي بك بعيداً عندما

يتملكني الملل منك. هل هذا يوضح الأمر؟

كانت ملامحه القوية قاسية وواجه نظراتها المذهولة بثبات.

أطلقت هيلاري ضحكة صغيرة فيما راح رأسها يدور: «أنت لا تعني ذلك...».

- تدبرت أمر تناول الغداء مع أختك. وعليك أن تبدئي بحزم أمتعتك.

جمدت هيلاري مكانها: «كيف يمكننا أن نقابل إيما على الغداء؟ إنها في مدرسة تبعد عن لندن أميالاً عديدة».

- أثناء كلامنا هذا تكون في سيارة تقلّها إلى هنا لهذه المناسبة.

- ولكن كيف.. أعني لماذا قمت بهذا الترتيب؟

- لدي أسباب ممتازة. أتظنين أنك الوحيدة التي يمكنها أن تقوم بحيل قذرة؟ إنني أستاذ في المناورات، يا جميلتي. إيما تظننا مستمتعين بالمصالحة وهي متشبثة بهذا الخبر. لذا، عليك أن تبتسمي على الدوام وتكثري من الأحاديث التي تحسنينها لكي تجعليها سعيدة..

جمدت هيلاري مصدومة، ثم قالت: «وكيف استطعت الاتصال بشقيقتي؟».

- لقد اتصلت بي في بيتي هذا الأسبوع، واعتذرت لي بشكل مؤثر عن موقفها العدائي في بداية زواجنا.

- آه.. لا..

وتأوهت هيلاري بفزع امتزج بالشعور بالذنب لأنها أدركت أن الذنب ذنبها في اتصال إيما براوول. فمنذ عودتها من سويسرا، لم تتحدث هيلاري إلى أختها إلا عبر الهاتف متجنبة أسئلة أختها عن علاقتها براوول. لم تستطع أن تخبرها الحقيقة لكنها لم تستطع أيضاً

أن تكذب عليها. وتابعت تقول:

- منذ البداية لم أستطع أن أعترف لها بسبب زواجنا، لأنني كنت خائفة.. خائفة للغاية....

- لئلا تفقد احترامها لأخت تزوجت رجلاً من أجل المال؟ سيريحك أن تعلمي أنني تركت أوهامها عنك كما هي. أخبرتني عن مدى تكدرها وهي ترانا ننفصل مرة أخرى وسألتني إن كان الذنب في هذا ذنبها هي.

- وماذا قلت لها؟ أننا تصالحنا؟ أليس هذا ما قلته منذ لحظات؟

- قلت إننا تصالحنا فعلاً، ولكن بشروطي أنا. إذا أصبحت طرفاً في انتقامي، فلا تلومي سوى نفسك.

- أنت تظنني امرأة كذابة مخادعة فظيعة... وسأكون مجنونة لو رافقتك إلى أي مكان.

- هذه ليست مشكلة فلا تقلقي لذلك. سأصطحب أختك وحدها إلى الغداء وأخبرها بكل تفاصيل علاقتنا غير السارة من البداية حتى النهاية...

- تصرفك هذا سيكون في منتهى اللؤم.

قال عابساً قبل أن يغادر الغرفة: «سأكون قد قلت الحقيقة ليس إلاّ، على عكسك أنت. يريحني أن أراك قد أدركت حقيقة أن تصرفك كان لا يغتفر».

ركضت هيلاري في أثره وهي تهتف: «إذا أردتني أن أعفّر وجهي بالتراب، فسأفعل، ولكن لا تورّط إيما في هذا...».

فنظر إليها ساخراً: «تعفير الوجه هو للفلاحين فقط. ولا بد أنك عرفتني جيداً لكي تعلمي أنني إذا أردت شيئاً، فسأحصل عليه. ستتعلمين كيف تكونين زوجة ساباتينية، وستوفرين عليّ الوقت

والجهد اللذين سأبذلهما في العثور على خليلة أخرى بأن تلعبي هذا الدور شخصياً...».

فصرخت في وجهه: «لا سبيل إلى ذلك».

- لكنك بذلت جهدك لتنالي هذه الصفة.

وعاد إلى الباب الأمامي يفتحه: «من المؤكد أنّ الأمر يستحق محاولة ثانية».

فقالت: «لن تجرؤ على أن تخبر إيما بما فعلته».

- بل سأفعل...

- لكن هذا العمل لن يفيدك بشيء. فلِمَ هذه القسوة؟

- لأن هذا ما تستحقينه.

وتأملها بكآبة ثم قال بعنف: «بخداعك، جعلتني أشتري لك خاتم زواج. وقبل أن أعود فأطردك من حياتي، سأثأر لنفسي».

- أنا لم أخدعك... لم أفعل هذا.

لم يبد عليه أنه سمعها إذ قال: «ستصل السيارة الليموزين بعد ساعة ونصف لتأخذك إلى الفندق حيث سنتناول الغداء مع أختك إيما. سأقابلك هناك لكنني سأتصل بمكتبي في لندن أولاً».

تملكها الذعر: «إذا تركت عملي مرة أخرى، فسيكون في ذلك إفلاسي ولا يمكنني هذا لأن...».

فنظر إليها بازدراء: «سأسدد ديونك...».

أشاحت بوجهها: «إنها مئتان وخمس وخمسون جنيهاً دفعتها أجراً للطائرة... لا بأس، إنه دين عليّ ولكن كفى كلاماً وكأن...».

- إنني صاحب مصرف، وسحب مبلغ أكبر من الرصيد هو دين...

- لا يمكنك أن تفعل هذا بي، يا راوول.

ودفعها اليأس إلى اللحاق به إلى فسحة السلم وهي تتابع: «إذا تركت لندن، فمن سيحل مكاني في غيابي؟».

- استخدمي مديرة... وسأدفع أنا النفقات...

بمزيج من الإحباط وعدم التصديق، أخذت تنظر إليه وهو يهبط السلم، ثم قالت: «إذا ما هددتني بعلاقتي بأختي فلن أسامحك أبداً».

نظر إليها بملامح كئيبة غامضة قائلاً: «أتظنين أن هذا يهمني؟».

جمدت مكانها ثم استندت إلى الجدار خلفها وهي تتنفس بعمق لتهدئة نفسها. لعله مسرور بتهديدها بكشف كل شيء لأختها. لا يمكنها احتمال هذه المجازفة. ظنت أن أختها قد تتفهم السبب الذي جعلها توافق على زواج كهذا منذ أربع سنوات عندما كانت حياتهما كئيبة للغاية، لكنها ستجرح بشكل بالغ بعد أن جعلتها هيلاري تعتقد أن زواجهما حقيقي. وكيف ستفسر إيما سلوك هيلاري الآن؟ هل سيدع راوول إيما تدرك أن أختها أتمت زواجها هذه المرة؟ وتملك هيلاري الرعب من فكرة أن تستعرض فشلها أمام أختها الأصغر، بينما يفترض بها أن تكون مثالاً لها، لا أن تحطمها.

اختار راوول بدقة قاسية تهديداً قادراً على أن يجعلها رهن مشيته.

٧ - في أحلامك!

احتضنت إيما هيلاري بحماسة بالغة، وهي تقول: «عندما أدخل الجامعة بعد العطلة الصيفية، لن تريني كثيراً. وكنت قلقة عليك لما ستعانينه من وحدة. هل هذه أنانية مني؟».

أجابتها هيلاري بابتسامة متألقة بقدر ما استطاعت: «كلا بالطبع». الحياة بعيداً عن المنزل جعلت إيما ذات شخصية مستقلة. ورغم أنّ هذا يؤلمها أحياناً، إلاّ أن إيما أصبحت أكثر قدرة على الحكم على الأمور، ما جعل هيلاري مزهوة بها للغاية.

قالت إيما لراوول بجد: «هيلاري بحاجة إلى شيء من المرح. لقد ضحت بالكثير من أجلي، المنحة الدراسية لا تغطي سوى جزء من النفقات، فكانت هيلاري تدفع البقية؛ ولهذا السبب تجدها مفلسة دائماً. عندما أدركت كم كانت دراستي تكلفها، حاولت أن أقنعها بأن تنقلني...».

فقالت هيلاري تقاطع هذا السيل المربك من المعلومات الشخصية التي تقدّم لراوول مجاناً: «كانت نتائجك جيدة حيث أنت وهذا هو المهم. إيما تريد أن تصبح محامية في القضايا الدولية وهي ماهرة جداً في اللغات».

تحدث راوول إلى أختها بالفرنسية فأجابته بهدوء ومن دون غلط. كان الاثنان يتميّزان بذلك الشعور بالثقة بالنفس الذي لطالما حسدت هيلاري الآخرين عليه. وبعد الغداء، أجاب راوول على اتصال

هاتفي فانفردت هيلاري بأختها لدقائق. كانت إيما تنوي العودة إلى المدرسة لتراجع دروسها قبل أن تقدم الإمتحان النهائي. وعندما تنتهي سنتها الدراسية، ستسافر إلى أسبانيا لتقيم مع أسرة صديقة لها. وبعد أن ودعت هيلاري أختها، صعدت إلى سيارة راوول وهي تقول: «لم أنته من توضيب أمتعتي بعد، لهذا أريد أن أعود إلى شقتي».

فنظر إليها بخشونة: «ليس لدينا وقت».

فرفعت رأسها متحدية: «ليس لديك وقت إنما أنا لديّ».

- سأؤجل موعد سفرنا إلى وقت لاحق من هذه الليلة...

فقالت بفتور: «هذا ليس ضرورياً. إنني بحاجة إلى مزيد من الوقت لكي أنظم أموري. أفضل السفر غداً».

أخذ يتأمل جانب وجهها المتمرد: «لن أترك لندن من دونك».

- لا أريد أن أذهب إلى سويسرا.

فتمتم بصوت أجش: «كاذبة».

- ماذا تعني؟

مر بإصبعه على شفتها السفلى الممتلئة فشعرت برعشة واختنقت أنفاسها في حلقها.

قال بنعومة: «أريني مدى كراهيتك لي يا جميلتي».

ورغم رغبتها في مقاومته، إلاّ أنها وجدت نفسها تميل نحوه. وعندما ضمها إليه، أصبحت كالنار بعد أن كانت كالثلج، وراحت تشتمّ رائحته المألوفة التي امتزجت فيها رائحة رجولته برائحة محلول بعد الحلاقة المثير للغاية.

- أنت لست جادة في المحاولة.

- محاولة ماذا؟

كان ذهنها خالياً تماماً، وصوتها أجش وهي تجاهد لكي تتكلم.

رفع حاجبه ومرّ بإصبعه على خدّها فأخذ قلبها يخفق بعنف، وشعرت برأسها ثقيلاً فأرجعته إلى الخلف بعد أن اشتعلت فيها نيران الرغبة.

وفجأة ابتعد عنها بشيء من السخرية، فاحمر وجهها، وانقبضت يداها. أرادت أن تضربه، أن تشتمه، لكنها تمكنت من لجم نفسها في الوقت المناسب. كانت مجروحة لشعورها بالعجز. كيف تملكها مثل هذا الضعف؟ إذا ما استمرت في تقديم نفسها له على طبق، فسرعان ما سيدرك أنها غارقة في حبه. وهذا أسوأ ما قد يحصل وأكثر الأمور إذلالاً؛ لذا من الأفضل أن يعتبرها باحثة عن الثروة.

توقّفت السيارة أمام صالون الحلاقة، فنزلت هيلاري منها بسرعة. كانت سالي بحاجة ماسة إلى فرصة استراحتها فحلّت هيلاري مكانها، حتى حان وقت إقفال الصالون. وقد وافقت سالي على إدارة الصالون ما دام لديها مبلغ كافٍ للطوارىء يمكّنها من استخدام بديلة لهيلاري قادرة على مساعدتها. تملك هيلاري الارتياح بعد أن اطمأنت إلى أنها تركت العمل بين أيدي أمينة.

وبعد أن راجعت الحسابات مع سالي، عادت إلى شقتها لتنهي حزم أمتعتها.

عند السابعة مساء، قرع جرس الباب فظنت أنّ الطارق راوول، إلا أنه لم يكن هو بل «غاريث» وهو مهندس خرجت معه مرتين في الماضي ليصبح بعدئذ صديقاً لها.

- يعجبني شعرك كثيراً.

وضحك وهو يشعث شعرها بأطرافه السوداء اللامعة التي بدت متناقضة تماماً مع لون شعرها الأشقر الفضي.

- هل أعجبك؟

ومنحته ابتسامة عريضة، إذ أن راوول لم يلاحظه أبداً. في الحقيقة، لم يكن هذا مهماً لأن اللون الأسود اللامع سيزول حالما تغسل شعرها.

- أتحبين أن تخرجي معي الليلة؟

وإذا بصوت يتعالى من فسحة السلم فيما هو يتقدم منهما عابساً: «لدى هيلاري موعد آخر».

فقال غاريث بوقاحة: «هل أنت سكرتيرها.. أو من هذا القبيل؟».

فأجاب راوول ببطء: «أنا زوجها».

احمرّ وجه غاريث، وأسرع ينزل السلم إلى الأسفل، وأدركت هيلاري أنه لن يقف على عتبة بابها مرة أخرى، فرمقت راوول بنظرة عنيف غاضبة لتدخله: «كان هذا غير ضروري أبداً...».

فواجهها بنظرة عدم موافقة: «كنت تغازلينه...».

- لا، لم أكن أغازله. وحتى لو فعلت، ما شأنك أنت؟

وبصعوبة بالغة تمكّنت هيلاري من التحكّم بأعصابها بعد أن رأت سائق راوول قادماً لينقل حقائبها.

قال راوول بصوت خشن منخفض: «كنت تنتظرين هذا الشاب الليلة ولهذا أردت تأجيل السفر إلى الغد».

كانت تهمّ بنزول السلم، لكنه جعلها تشعر وكأنها تضاهي سحراً هيلين ملكة طروادة التي دارت من أجلها الحروب، فتألق وجهها: «أنا فتاة ذات دم حار، وسيتوجب عليك أن تراقبني ليلاً نهاراً في سويسرا. هل أنت واثق من أنني أستحق هذا الجهد؟».

ومن دون سابق إنذار، أمسكها من كتفيها ودفعها إلى جدار

فسحة السلم. حدث هذا بسرعة، ما شتت ذهنها وجعلها تشهق. تأملت عيناه البرونزيتان الملتهبتان وجهها المجفل بتحذير عاصف: «هل لاحظت شيئاً؟ أنا لا أضحك. حذار! إذا رأيتك تغازلين رجالاً آخرين، فلن أكون مسروراً».

جفّ فمها، وتملكتها إثارة خطيرة لعنفه هذا: «كنت أمزح فقط...».

- هذا ليس مضحكاً.

ولمعت في عينيها روح النكتة: «على الأقل غاريث لاحظ أنني أصبغ أطراف شعري باللون الأسود...»

- إنه من النعومة بحيث لم يخبرك أنك تبدين أشبه بالقنفذ.

وتركها لينزل السلم. أخذت نفساً ممزقاً وهي تتأمله. قنفذ؟ وتملكها شعور بالإهانة. وفيما كانا يسيران في المطار لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إلى صورتها في واجهات المتاجر التي تمر بها، كما لم تستطع أن تمنع نفسها من ملاحظة قصر قامتها وامتلائها بجانب قامته الطويلة الضامرة. وقفا ينتظران الصعود إلى طائرة راوول النفاثة الخاصة، فرن هاتف هيلاري الخلوي، وجاءها صوت صديقتها بيبا، فابتعدت عن راوول لتتكلم على انفراد.

كانت بيبا وزوجها أندريو دالسيو يعيشان في إيطاليا. وكانت بيبا تخبر هيلاري أنها وزوجها قادمان إلى لندن لتمضية عطلة نهاية الأسبوع، وأنهما متشوّقان للقائها. لكن هيلاري ردّت بأسف: «أنا أتحدث إليك من المطار أثناء انتظاري الطائرة التي سأستقلها إلى سويسرا. كما أنّ من حقك أن تستائي مني لأنني أخفيت عنك سراً. أنا متزوجة...».

- متزوجة؟ لا أصدقك!

- لا، بل عليك أن تصدقيني، فهو يقف بجانبي يستمع إلى الحديث. لكن قصة زواجنا هي..

ونظرت إلى راوول متحدية، وإذا به ينتزع الهاتف من يدها بسرعة جعلتها تفغر فاها، بينما أكمل كلامها: «قصة خرافية كلياً. أنا زوج هيلاري... وأنت؟...».

أخذت هيلاري تدور حوله ثائرة، بينما هو يثرثر مع صديقتها، ثم أنهى الحديث بإعلانه أن طائرتهما وصلت.

هتفت وهي ترتجف غضباً: «كيف تجرؤ؟».

رافقها إلى الطائرة وهو يقول ساخراً وعيناه على وجهها: «لم تتركي لي خياراً، فقد كنت على وشك أن تبوحي، بثرثرتك، بكافة الأسرار».

فقالت وهي تصرف بأسنانها: «أنا لا أثرثر».

- يمكنك أن تثرثري في إنكلترا من الهاتف العمومي وفي الطائرة.

سارت هيلاري إلى قاعة مترفة واختارت أبعد مقعد رأته عن راوول. فقد ثارت ثائرتها لتدخله في مكالمتها الهاتفية ثم اتهامه لها بالثرثرة. كم هو جريء!

وعندما ارتفعت الطائرة وتركهما المضيف بمفردهما، سمعت نفسها تقول له: «من تظن نفسك؟».

فقابل نظراتها المتهمة ببرودة: «أنا شخص يجب الخصوصية، وما يحدث بيننا يجب أن يبقى خاصاً بنا هو أيضاً ولا مكان لثرثرة النساء بيننا».

أشاحت بوجهها عنه، ثم تكوّرت في مقعدها المريح. لم يكن من عادتها أن تبكي لكنها شعرت فجأة أن نهراً من الدموع يمكن أن

يسيل من عينيها. ربما كان لهذا علاقة بشعورها بالتعب إلى حد لم تستطع معه أن تبقي عينيها مفتوحتين. عرض عليها الخادم طعاماً فهزت رأسها رافضة، إذ تشنجت معدتها لفكرة تناول الطعام. أرادت أن تتشاجر مع راوول، لكنها، ولأول مرة، لم يكن لديها الطاقة لذلك.

في الصباح التالي، تأخرت هيلاري في النوم، وعندما استيقظت، كانت متلهفة لمواجهة راوول ولقول كل ما عجزت عن قوله أثناء تناول الغداء مع أختها. على مائدة الفطور، أخبرها أمبرتو أن راوول ذهب إلى المصرف منذ وقت طويل.

ما تذكرته عن كيفية خلودها إلى النوم الليلة الماضية كان غائماً لكنه محرج. فبعد أن شعرت بالدوار أثناء الطيران أخذت تتعثر وهي تسير في المطار، ثم شعرت بالدوار مرة أخرى في السيارة فسمحت لراوول بأن يحملها إلى السرير عند وصولهما إلى البيت. لم يتملكها مثل هذا الإرهاق قط من قبل. وتملكها الارتياح وهي تحسّ بأنها استردت طاقتها.

كانت تظن أنها جائعة جداً، لكن عندما وصل الفطور الذي طلبته فقدت شهيتها فجأة. دفعت الطبق بعيداً وأخذت تأكل بعض الخبز وتشرب الكاكاو الساخن الذي استمتعت به كثيراً. وإذ رأت أن زيارة إلى قدس الأقداس، مصرف ساباتينو، تتطلب جهداً خاصاً من ناحية الأناقة، تملكها الارتياح وهي تكتشف أن الملابس الفاخرة التي اشتراها راوول لها لا تزال في غرفة الملابس. ارتدت ثوباً مزيناً بالدانتيل بدا أكثر تحفظاً عندما وضعت فوقه معطفاً قصيراً موشّى بالأزهار.

كان فرع مصرف ساباتينو في جنيف بالغ الفخامة والاتساع ومبنياً

على أحداث طراز.

راح توتر أعصابها يزداد. إعلام مكتب الإستقبال أنها زوجة راوول أثار موجة من الاهتمام المتحفظ، حيث رافقها شاب أنيق إلى الطابق الخاص من المبنى، وأدخلها إلى مكتب فسيح للغاية.

كان راوول يتكىء إلى الخلف برشاقة الفهد في كرسي موضوع خلف مكتب خشبي مصقول. أما بذلته الزرقاء الداكنة مع قميص رمادي وربطة العنق الأنيقة، فجعلته يبدو غاية في الأناقة.

قال لها بنعومة: «أخبريني عن سبب هذه الزيارة. ما المناسبة؟ لا أظنه عيد مولد أحد».

- أردت فقط أن أتحدث إليك.

- كان عليك إذن أن تستيقظي من النوم باكراً. إنني في عملي الآن ولست مستعداً لأيّ زيارات شخصية.

قالت آملة أن تستحوذ على انتباهه: «هذا حسن.. لأن هذه زيارة تتعلق بالعمل».

وقف ومدّ يده إليها: «تعالي، أريد أن أريك شيئاً».

تقدمت نحوه فأمسك بيدها وجرها نحو باب في الناحية الأخرى من مكتبه.

- إلى أين تأخذني؟

إنها غرفة الغسيل. سار خلفها ثم أوقفها أمام الحوض ما أمكنها أن ترى انعكاس صورتيهما في المرآة. كانت عيناها الزرقاوان مسمرتين على وجهه الأسمر. وتسارعت دقات قلبها فأخذت نفساً عميقاً.

قال وهو يخلع عنها معطفها: «ماذا ترين؟».

فجمدت مكانها: «نحن الاثنين»؟.

أزاح حمالتي الثوب معرياً كتفيها النحيفين.

توقفت هيلاري عن التنفس كلياً، ونسيت في هذه اللحظة سبب حضورها لرؤية راوول.

سألها بصوت ناعم كالحرير: «هل هكذا تلبس المرأة من أجل موعد عمل يا عزيزتي؟».

أجابته لاهثة: «أعلم أن الثوب مكشوف قليلاً لكنني أحبه كثيراً، وقد ارتديت هذا المعطف فوقه ليبدو محتشماً ومتحفظاً».

فقال: «هذا ليس ما أردت توضيحه. ما أردت أن أقوله هو ضعي ثوباً كهذا على جسد بارز المفاتن كجسدك، ولا يمكن أن تصفي النتيجة بالتحفظ».

مالت إلى الخلف، ومنحته ابتسامة حالمة: «هل أعجبك الثوب؟».

- أليس هذا ما أردته أنت؟

- لم أفكر فيه ولكن لعلك على صواب.

لمعت عيناه الذهبيتان وأبعدها عنه بيدين حازمتين وهو يقول: «إذن، هذا المشهد هو لغرفة النوم وليس لمكتبي في المصرف».

طرفت بعينيها وهي تشعر بأزيز في داخلها أنار ذهنها. يبدو أنه ظنها جاءت إلى هنا لتغريه وتخرجه من مكتبه في هذا المبنى الحجري القديم! فقالت بحدة: «جئت إلى هنا لأجري معك حديثاً جاداً».

بعدئذ، تناولت معطفها وعادت إلى المكتب: «وأنا مصممة على إجراء هذا الحديث. آسفة إذا لم تستطع أن تركز ذهنك على العمل لأن امرأة ترتدي ثوباً مغرياً...».

أظلم وجهه وألقى عليها نظرة لاذعة: «جربي...».

- منذ حوالي أربع سنوات، وقّعت عقداً لأصبح زوجتك، ومقابل ذلك تسلمت مبلغاً معيناً من المال وقد أعدت إليك ثلثي ذلك المبلغ بعد أن اكتشفت أنني لست بحاجة إليه، ثم..

رفع راوول يده يسكتها: «توقفي. تقولين إنك أعدت جزءاً من ذلك المبلغ؟ كيف؟».

- لقد أعدته إلى الحساب الذي فتحته أنت، وأرسلت إليك رسالة عبر محاميك. ذلك الرجل المشكك بول...

- الرجل النافذ البصيرة؟ بسبب تصرفك الغريب، هشمت أنفه في الأسبوع الماضي...

حملقت فيه وسألت: «فعلت ماذا؟ هشمت أنفه؟ ولكن لماذا؟؟».

- من سوء حظه أنه أشار إلى أن زوجتي ليست كما أظنها.. وذلك قبل أن أستعيد ذاكرتي.

احمر وجهها لهذه الإهانة: «حسناً.. كنت أتحدث عن ذلك المال».

لم يبد عليه التأثر، وقال: «لم أعرف أنك أعدت أياً من ذلك المال».

- حسناً، المسألة هي أنني أعرف. أدركت أنني لست بحاجة لأن أشتري بيتاً بينما يمكنني أن أستأجر وأحداً. احتفظت فقط بمبلغ يمكنني من استئجار شقة، وافتتاح صالون حلاقة في المتجر الذي في الطابق الأرضي. الصالون كلّف الكثير. عملي ليس مشروعاً يدر المال لكنه يكفي لدفع الإيجار ونفقات العيش. لم أتذمّر قط...

- هل لك أن تخبريني إلى أين سيقودنا هذا الحديث؟

- عندما تنهي إيما دراستها، سأبيع العمل وأعيد إليك كل ما

أعطيتني إياه. لذا، إذا ما قطعت لك وعداً فنكون متعادلين وتدعني أعود إلى وطني.

- هل أرتديت أكثر ملابسك إثارة لتقدمي لي هذا العرض؟

تملكها الغيظ من تهرّبه من الجواب ما يوضح أنه يعتبر هذا العرض لا يستحق أي اعتبار. أخذت تتنفس بعمق، بينما عاد هو إلى مقعده خلف مكتبه وأخذ ينظر إلى صدرها الممتلىء وهو يرتفع وينخفض تحت «الدانتيل».

وأخيراً قال برقة: «بالنسبة إليّ، الأمر لا يتعلق بالمال ولم يكن كذلك قط. من المؤكد أنك أدركت ذلك».

- أعلم أنك تعتقد أنني مدينة لك. وأعلم أنّ لديك نوعاً من المبادىء التي لا تعرف الصفح.

قال متسلياً: «لديك قدرة كبيرة على فهم الأمور».

- لا أستطيع أن أجد سبباً معقولاً يجعلك تصرّ على إرغامي على البقاء هنا..

فابتسم ساخراً: «لكنني لدي أكثر من سبب معقول. لدي حب السيطرة. أشعر بالرضى البالغ لإرغامك على القيام بما أريد».

- هذا مقزز.. عليك أن تخجل من نفسك.

ثار غضبها وهي تراه يعترف بذلك من دون تردد.

ضاقت عيناه: «ولكن ألم تفعلي الشيء نفسه؟ شعرت برضا بالغ عندما استغلّيت فقدان ذاكرتي لكي تمنحيني شعوراً زائفاً بالاطمئنان».

- أنا لست مثلك.. كما أنني لم أستغلك. حاولت فقط أن أجعلك هادئاً سعيداً.

نطقت بهذه الكلمات شاعرة بالألم، فالتوى فمه هازئاً: «أؤكد

لك أنك جعلتني أبتسم في غرفة النوم. أما بالنسبة إلى إرغامي لك على القدوم إلى هنا، فلم يحن الوقت بعد لكي تواجهي الحقائق؟».

- أية حقائق؟

- أنت لم ترفضي القدوم معي إلى البيت كما لم تقاومي وتصرخي. أنت تريدينني أيضاً.

فقالت بحرارة: «ليس إلى الحد الذي يجعلني أسمح لك بأن تستغلني».

فقال وهو يمرّ بأصابعه على خدّها: «وما هو الحد؟».

اشتعل جسدها حيث مر بأصابعه وأصبح حساساً وكأن كل خلية فيه التهبت.

قالت وهي ترتجف: «المعاشرة الزوجية ليست كل شيء بالنسبة إلي».

فقال بصوت أجش: «أستطيع أن أجعلها كذلك».

- إنني أقدّر نفسي أكثر.

- لكنك لم تكوني كذلك منذ أربع سنوات. لو أشرت إليك بإصبعي لهرعت إليّ ركضاً.

دمّرها قوله هذا. وعادت بذهنها لحظة إلى الماضي، حين كانت غارقة في غرامه وبدون أمل. كانت حمقاء صغيرة السن ومستعدة للقيام بأي شيء لكي تحصل على فرصة معه. فكرة أنه كان يعرف شعورها نحوه بالضبط، ومع ذلك تركها ومضى، كانت مؤلمة إلى حدّ لا تستطيع احتماله.

- أيها الحقير. أنت أيضاً انجذبت إليّ لكنك لم تفعل شيئاً حيال ذلك...

- كنت متعقلاً أكثر مما ينبغي...

www.elromancia.com

- بل متكبراً أكثر مما ينبغي. أراهن على أني لو كنت تلك الفتاة الفاسدة لمنحتني فرصة!

- أنا لست متكبراً. إنما لدي تطلعات في مجالات معيّنة ولن أعتذر عن ذلك..

- أنت رجل ولد وفي فمه ملعقة من ذهب. اعتدت أن تنال الأفضل طوال حياتك. نظرت إليّ فشعرت نحوي بالانجذاب نفسه الذي شعرت به نحوك.. أنا أعرف هذا... لأنك اعترفت لي بذلك حين كنت فاقداً لذاكرتك..

كانت تتكلم بمزيج من الغضب والألم والإتهام.

- لقد تركتك ورحلت لأنك كنت صغيرة في السن...

- بل تركتني ورحلت لأن عقلك يقوم بوظيفته بجمود بالغ..

فقال بنعومة: «هل هذا هو تقديرك للأمور؟».

- .. ولأنك لم تجدني مناسبة لك..

- وما زلت غير مناسبة.. ومع ذلك أنت هنا..

ووضع يديه على خصرها وجذبها إليه فقالت ثائرة: «أتظن أن عناقك سيجعلني أقل غضباً منك؟».

لكنه سحق عظامها ثم أطال العناق مستمتعاً، فارتجفت ورفعت يديها تمسك بكتفيه القويتين. وقرّبها منه أكثر ما جعل الدم يتسارع في عروقها بشكل جنوني.

قال بصوت ثخين: «لا أستطيع الانتظار حتى السابعة ليلاً».

- آه..

لا يفترض فيه أن يعانقها فهي غاضبة منه. لكنها غرزت أظافرها في قماش سترته الفاخر وعادت تلتصق به.

وتملكها الذعر: «إننا في المصرف.. قد يدخل علينا شخص ما

من هذا الباب في أية لحظة».

- إنه مقفل.. نحن في أمان.

وأرجع رأسه إلى الخلف مستمتعاً بالنظر إليها قبل أن يقول: «لكنك لست كذلك...».

حاولت أن تتملص منه إلا أن راوول رفعها بين ذراعيه بسهولة.

- راوول!...

- لا يمكن مقاومة هذا...

بدت الرغبة على وجهه القوي وهو يقول: «أنت تسرين في جسدي كالحمّى».

راح الهاتف يرن، فشتم ومدّ يده إلى خلفها ليوقف الرنين. تخلل شعرها بأصابعه وهو يضمها إليه، فتمتمت لاهثةً: «أريدك».

- ليس بقدر ما أريدك يا جميلتي.

وصمت لحظة قبل أن يردف: «علمتني أن أسبوعين من عمر المرء قد يمرّان وكأنهما الحياة بأكملها».

بعدئذ، حملها راوول إلى عالم من الأحاسيس، لم تكن حتى تحلم بوجوده. وعندما عادا إلى أرض الواقع، أوشكت أعصابها على الانهيار نتيجة استسلامها هذا. أما هو فقد وقف ينظر إليها مذهولاً: «لا أستطيع أن أصدق أننا فعلنا ذلك. لا أستطيع أن أصدق أني تماديت إلى هذا الحدّ في مكتبي».

كانت هيلاري بحاجة فقط إلى من يذكرها بهذا كله، فهبّت واقفة كالقطة. أرادت أن تزحف إلى تحت المكتب وتختبىء لكنها لم تفعل.

وأضاف راوول ببرودة: «عليك عدم دخول مكتبي بعد الآن».

قالت متلعثمة بانفعال بالغ: «آسفة.. قل.. قل هذا مرة

www.elromancia.com

أخرى..»

- أظنك خططت لتمثيل هذا الدور المسرحي لتظهري نفوذك وتأثيرك. جئت إليّ متعمدة ارتداء هذا الثوب لكي تتصري عليّ.

تكلم ببرودة أثارت أعصابها فكادت تهجم عليه وهي تصرخ بهستيرية. هل يظنها خططت لانهيارها هذا؟ هل يظنها مزهوة باستسلامها؟ أتراه فقد عقله؟ واحمر وجهها خجلاً. حاولت أن ترتب ثوبها بأصابعها المضطربة وهي تقول: «ما إن دخلت من ذلك الباب، حتى سيطرت على ذهنك فكرة واحدة. فإياك أن تجرؤ على لومي».

صمتت لحظة تستعيد فيها أنفاسها ثم تابعت: «من أقفل الباب؟ من تجاهلني عندما حاولت أن أذكره بمكان وجودنا؟ من أخبرني أن مرور أسبوعين يمكن أن يكونا أشبه بمرور الحياة بأكملها؟».

- هيلاري..

- وما إن نلت ما تريد، حتى رحت تتصرف وكأنني ألقيت بنفسي عليك.

كانت تتكلم بشكل محموم فيما تتجه إلى الباب متجنبة النظر إليه:

- من حملني بين ذراعيه؟ صدقني أن الشياطين نفسها لا يمكنها أن تعيدني إلى هذا المكتب مرة أخرى.

حمل راوول معطفها ليضعه على كتفيها فقالت له شامتة: «ثمة أحمر شفاه على قميصك».

- أريد أن أتفق معك على تكرار هذه الزيارة، يا حبيبتي.

فرمته بقولها: «في أحلامك».

فتمتم بنعومة: «أنا خبير. العلاقة الحميمة بهذا الشكل نادرة».

شحب وجه هيلاري وأحنت رأسها. إنه من دون مشاعر، لكنه وبيضع كلمات قادر على أن يسلخ جلدها عن عظمها.

متى بالضبط نسيت شعوره نحوها؟ متى بالضبط نسيت رأيه فيها على أنها باحثة عن الثروة؟ وأنها كاذبة ومخادعة وأنها استغلته أثناء ضعفه؟ ضعفه! وتأملت راوول.. إنه حيوان ذكوري لا يعرف الضعف. رجل ينظر إليها بمزيج من الرغبة والبرودة. رجل يغرقها في الأحاسيس لينسى وجودها تماماً بعد ذلك. باختصار، إنه رجل قادر على أن يؤذيها إلى حد بالغ إذا لم تكن حذرة..

- هذا لن يحدث بعد الآن أبداً.

وأطلقت شتيمة وهي تستدير على عقبيها متوجهة نحو الباب لتهرب من مشهد هزيمتها هذا.

- على أي حال، ليس قبل أربع وعشرين ساعة لأنني سأغادر إلى زوريخ هذا المساء. سأراك مساء الغد.

فكرت هيلاري في ردود متنوعة تهاجمه بها مثل: لا تسرع بالعودة إلى البيت، لكنها رأت أن أي جواب كهذا لن يترك تأثيراً مذكوراً فيه، فغادرت المكتب بصمت شاعرة بالضيق. في الخارج، رأت مجموعة من الموظفين في الانتظار وقد بدت الحيرة على وجوههم. تراجع الكل ليدعوها تمرّ، فسارعت نحو المصعد إذ شعرت أن ما كانت تفعله في الداخل مكتوب من دون شك على وجنتيها المتوهجتين.

لقد اكتشف، بشكل ما، السحر الذي يحوّلها إلى امرأة تتصرف كامرأة عاشقة. لهذا وحده عليها أن تكرهه وتذكرت رد فعله على وجودها. لقد أفقدته المشاعر المشبوبة التي غدرت بهما اتزانه، فأعلمها أنها ممنوعة من دخول مكتبه، ممنوعة وكأنها تتمتع بجاذبية

طاغية تجعلها خطراً عليه في مكتبه حيث الاستقامة والصرامة والانضباط. وأرجعت رأسها إلى الخلف وعلى فمها ابتسامة عريضة وقحة.

٨ . ممثلة بارعة

وفي اليوم التالي جلست أمام الفطور تتأمل الطعام من دون شهية. كانت تشعر بالغثيان، ولم تكن هذه المرة الأولى أيضاً. أتراها أصيبت بعدوى؟ لكنها لم تكن تشعر بالمرض.. بل بمجرد تعكّر في المزاج.

وبينما كانت تفكر في هذا اللغز، خطر لها أن جسدها يتصرف أيضاً بشكل شاذ.

وبحساب بسيط على أصابعها، اكتشفت أن دورتها الشهرية تأخرت أيام عدة. عادت تحسب لكنها لم تستطع أن تتذكر التواريخ الصحيحة لأنها لم تهتم قط من قبل بهذا الموضوع. واختلطت التواريخ في ذهنها، وجمدت مكانها وهي تتذكر أنها لم تتخذ أيّ احتياطات لمنع الحمل.. كما لم يفعل راوول!.

كل ما حدث بينها وبين راوول حدث بسرعة. ولم تجر العلاقة بينهما عن سابق تصوّر وتصميم.

هل كان يفترض أنها تتناول حبوب منع الحمل؟ رباه، كيف أوصلت نفسها إلى وضع كهذا؟

في الشهر الماضي لم تعاشر راوول سوى أسبوع واحد، فكيف تنجب في مثل هذا الوقت القصير؟ ألم تقرأ مقالة صحفية عن انخفاض معدل الخصوبة لدى المرأة؟ لعل التوتر والإرهاق جعلا دورتها الشهرية غير منتظمة وجعلاها تشعر بهذه الوعكة. ستنتظر

www.elromancia.com

أياماً عدة فإذا بقيت على حالها، ستشتري اختباراً للحمل. على أيّ حال، من الجنون أن تقلق لشيء قد لا يحدث أبداً.

حوّل لها أمبرتو اتصالاً، وكان من راوول الذي قال: «أردت الاتصال بك الليلة الماضية، لكن الاجتماع تأخر كثيراً».

كان صوته العميق رائعاً عبر الهاتف. قالت: «لا بأس. لم أكن أتوقع اتصالاً منك».

- سنحضر الليلة حفلة يا عزيزتي.

- إذن، سأحصل على سهرة خارج البيت لحسن سلوكي؟

- وسهرة في البيت لسوء سلوكك. خمّني أيهما أفضّل. أنا لا أحب الحفلات.

أثناء ارتدائها ملابسها ذلك المساء، انتظرت مقطوعة الأنفاس فتح الباب الموصل بين غرفتيهما.

ارتدت ثوب سهرة أخضر مكشوفاً عند كتفيها يبرز لون بشرتها الناصع البياض. وأخيراً نزلت السلم.

خرج راوول يسير متمهلاً في الردهة وراح يتأملها بعينين داكنتين بسواد الليل، عينان ما لبثتا أن تألقتا استحساناً: «مظهرك جيّد».

تورد وجهها لنظراته، وقالت: «لا حاجة بك لإظهار الدهشة».

- خطر ببالي أنك قد تنتهزين الفرصة لإغاظتي بارتداء شيء غير ملائم.

- أنا لست إلى هذا الحد من الصبيانية.

وتنحنحت ثم عادت تقول: «وبالمناسبة، أعدت خاتم الزواج.. ذاك.. إلى إصبعي».

فقال ببرودة ناعمة: «ولِمَ لا؟ لقد جاهدت بما يكفي للحصول عليه».

التهب وجهها وكأنه صفعها: «عندما تتحدث إليّ بهذا الشكل، أكرهك».

فضحك ساخراً: «الكراهية تقليد متوارث بين المتزوجين في أسرتنا».

- إذا أحبت أمك رجلاً آخر، فهذا لا يعني أنها كانت تكره أباك..

- كلا. كانت أمي تحب ذلك الرجل نفسه عندما تزوجت أبي. وعندما عرف أبي الحقيقة تحوّل حبه لها إلى كراهية.

فأجفلت: «وما الذي جعلها تتزوجه؟».

كانت السيارة الآن تنتظر أمام المنزل. فأجاب: «كانت جدتي تحب المال مثلها، لكنها أحسن أخلاقاً، فأعطت جدي كليمنت ولداً ثم أخبرته أنها أدّت واجبها. ورغم أنهما بقيا تحت السقف نفسه حتى ماتت، إلاّ أنهما لم يعيشا زوجاً وزوجة مرة أخرى قط».

- يبدو من الخطأ أن تتزوج أمك أباك بينما هي تحب رجلاً آخر. لعلها تعرّضت لضغوط لست على علم بها، أو لعلها اعتقدت أنها تقوم بالأمر الصواب وأنها ستتعلم كيف تحب أباك.

حرصت هيلاري في جدالها هذا معه على أن تشجعه على تخفيف حكمه على أخطاء الآخرين.

فقال بجفاء بالغ: «هذا التعليل لم يخطر في بالي قط. أتظنين أنها أنجبتني آملة أن تتعلم كيف تحبني أنا أيضاً؟».

أجفلت لسخريته هذه، وقالت: «أردت فقط أن أقول إن ثمة وجهين لكل زواج فاشل وقد يكون هناك ظروف مخففة.. كنت أحاول أن أواسيك».

- لكنني لا أحتاج إلى مواساة، أنا لا أتذكر أمي، فقد ماتت

قبل أن أبلغ الرابعة.

- وكيف؟

فهز كتفيه: «غرقت».

- آسفة لأن القدر لم يسمح لك بأن تراها. نعم، أعرف أنك تظنني عاطفية أكثر من اللزوم. لكنك لو تعلم ما أنا مستعدة لفعله لكي أستعيد أمي وأتحدث إليها ولو لخمس دقائق.. أنا مستعدة للقيام بأي شيء من أجل هذا..

قاطعها هازئاً: «إذا كنت لا تستطيعين أن تقنعي قلبك بأن ينزف بصمت، فسأحضر الحفلة وحدي».

فقالت وهي ترتعش قليلاً وعيناها تغرورقان بالدموع بعد أن أحسّت بغصة: «أظن أنّ هذه أفضل فكرة سمعتها. لا أراني أريد أن أمضي دقيقة أخرى مع شخص من دون شعور مثلك».

- اهدئي، كدنا نصل إلى المطار. أنت عاطفية للغاية..

قالت بعنف وهي ترتجف: «من غير المحتمل أن تشعر بالحزن، أليس كذلك؟ أنا لا أخجل من إظهار عواطفي».

فقال بهدوء: «أنا لا أطلب منك أن تخجلي، بل ألاّ تظهري عواطفك وحسب».

لكن هيلاري وجدت صعوبة في أن تتحكم في عواطفها الجياشة: «لقد أحببت والديّ كثيراً وما زلت أفتقدهما بشكل هائل. علّماني أن يكون ظني بالناس حسناً، رغم أنني اكتشفت لاحقاً أن العالم ليس مثالياً دوماً».

- ومن علمك ذلك الدرس؟

- ابنة عم أبي، ماندي. عندما علمت بموت والديّ، بدأت تحركاتها. أقنعت مؤسسة «الشؤون الإجتماعية» بأنها الشخص

الوحيد المناسب والقادر على تنشئة أختي إيما وتحمل مسؤوليتها. وكنت أنا أعتبر قاصراً حينها. وتملكني الفزع من أن أفترق عن أختي فقلتنا ماندي لنعيش معها في منزل كبير مستأجر...

شعرت هيلاري بألم بالغ لهذه الذكرى، فسألها: «ثم ماذا؟».

- ابتزت ماندي وصديقها كل ما استطاعا الحصول عليه من نقودنا. استولت على النقود التي تركها لنا والدانا. لم يكن المبلغ كبيراً لكنه يكفي ليبقينا أنا وإيما، مرتاحتين لسنوات عدة. وعندما لم يبق لدينا ما يمكن أن يُسرق أو يُباع، رحلت من البيت ذات يوم ولم تعد قط.

- أظنك استدعيت الشرطة، فإساءة الأمانة جريمة.

- كان المال قد نفد وليس بإمكان أحد أن يعيده. كان لدي أمور أخرى تقلقني أكثر... مثل العثور على مكان أقل كلفة نعيش فيه، فضلاً عن رعاية أختي.

وبحنان غير متوقع، أمسك بيدها يضغط عليها: «لقد وثقت بماندي لأنها كانت من أقاربك. ولا بد أن غدرها تسبب لك بصدمة كبيرة».

- نعم...

وبدلاً من أن تداري مشاعرها، أفزعها أن تدرك أنّ تلك الرغبة في إطلاق العنان لدموعها تزداد قوة.

وتمتم بصوت لاذع أجش: «عندما فقدت ذاكرتي، لم يكن لدي خيار سوى أن أثق بك. وصدقت أن زوجتي...».

سحبت يدها من يده بعنف وقالت: «لست بحاجة إلى أن تقول المزيد، فقد فهمت ما تريدني أن أفهمه. لكن كل ما فعلته أنا هو أنني حاولت أن أتصرف وكأنني زوجتك. لم يكن لدي أية دوافع

خفية، كما لم يكن في نيتي أن أكسب مالاً من زواجنا».

- الزمن وحده هو الذي سيبرهن مدى صدق هذا الإدعاء.

- اسمع. ما هي مشكلتك؟ أنت وسيم بشكل لا يصدّق، مثير للغاية، ومع ذلك يبدو أنك لا تصدق أن امرأة ما قد تريدك لشخصك.

فأجاب بنبرة ناعمة كالحرير: «أو من أجل جسدي».

صدمها ذلك وفقدت أعصابها وتملكتها ثورة لم تستطع التحكم فيها: «هذا أحد الأمور التي لا يمكنني أن أطيقها فيك. تحب دوماً أن تكون لك ملحوظة ذكية. أنت مقتنع بأنك لا تخطىء فتلومني على كل ما يحصل. إذا سقطت السماء فوقنا في هذه اللحظة، لقلت إن الذنب ذنبي».

لم يهتم لهجومها هذا وقال وهو يتفحصها بنظراته: «نعم.. من المعروف أنّ الصراخ يسبب انهيار الجبال».

تنفست بعمق لتتحكم بمشاعرها. كانت ترى ملامحه الوسيمة بشكل يفوق الوصف من خلال ضباب أحمر، وفي تلك اللحظة من العداوة، فتح السائق الباب.

وعندما استقر بجانبها في الطائرة المروحية، همست بصوت كالفحيح: «أريدك فقط أن تعلم أنني أكرهك».

تخلل شعرها بأصابعه الطويلة، ثم أمسك بها وعانقها. شعرت وكأنها هوجمت ثم قذفت من فوق جرف عالٍ إلى هاوية سحيقة لتتملكها إثارة ساخنة.

مال إلى الخلف وأخذ يحدق إليها بعنف: «سنبقى في الحفلة أربعين دقيقة فقط».

كانت تلهث، وأذهلها عنف مشاعرها رغم محاولتها إبقاءه بعيداً

عنها. إنه قادر على أن يؤذيها، وسيؤذيها ما دامت تحبه.

- راوول..

- أنت تجعلينني أحترق من أجلك.. بالكاد نمت ليلة كاملة أثناء غيابك في لندن. لكنك عدت الآن ملكاً لي وستبقين كذلك حتى أقرر أنا العكس، يا جميلتي.

أنزلتهما الطائرة المروحية على سطح يخت فخم حيث استقبلوا بترحيب بالغ وكأنهما من العائلة المالكة. كانت هيلاري تشعر بدوار، وكل ما كانت تراه هو راوول، وجسمه الكبير المتوتر المتململ بجانبها، وذراعه القوية التي تطوّق خصرها. إلاّ أنّ آداب المجتمع أخذته منها إذ جاء مضيفه يحثه على أن يقابل صديقاً قديماً.

أمسكت هيلاري بكأس شرابها الذي لم تمسه. أحست بالأنغام وثرثرة الحضور تكتنفها، وأخذ المضيف يقدم إليها وجوهاً غريبة. ملابس النساء الأنيقة وحلّيهن الرائعة أغشت منها البصر فأخذت تطرف بعينيها. كما زادت حركة اليخت الخفيفة الأمر سوءً وباغتتها الرطوبة الساخنة وتملكها دوار وشعرت بغثيان شديد. وعندما التفتت بلهفة تبحث عن مقعد، كان الأوان قد فات وسقطت على سطح المركب مغمى عليها.

عندما استعادت وعيها، كان راوول ينظر إليها بعينين غامضتين وهو يقول: «لا تقلقي يا عزيزتي سآخذك إلى البيت».

عادت تطرف بعينيها، وحمدت الله بصمت على تلاشي شعورها بالغثيان. رفعها بين ذراعيه، متبادلاً حديثاً قصيراً مع مضيفيه القلقين، ثم سار بها إلى السطح العلوي ليركبا الطائرة المروحية مرة أخرى.

عندما أصبحت الطائرة في الجو، قال لها بإعجاب ساخر: «لا أظنني رأيت في حياتي تمثيلاً أبرع أو أكثر سحراً من تمثيلك هذا».

تذكرت أنه أعرب عن رغبته في قضاء أقل من ساعة في الحفلة... سرّها أنه اعتقد حقاً أنها مثّلت دور المغمى عليها لكي تسرّه وتساعده على إيجاد حجة لترك الحفلة بسرعة. لم تساعد حركة الطائرة في الجو في استقرار أمعائها المضطربة، كما أن الحديث فاق قدرتها على الاحتمال. شغلت ذهنها أسئلة عديدة زادت من توترها. لماذا أغمي عليها؟ لم يحصل لها هذا قط من قبل. لكنها تذكرت أن بيبا أخبرتها أن الدوار أمر شائع في بداية الحبل. وحالما حطت بهما الطائرة المروحية، التفت راوول إلى هيلاري ليساعدها بينما أضاءت ابتسامة خبيثة وجهه الوسيم: «كان هذا أكثر حالات الإغماء تأثيراً. حتى أنني ظننت، للحظة، أنه حقيقي».

تمتمت وهي تتكىء عليه: «لقد كان كذلك... أظنه دوار البحر».

فهتف: «دوار البحر؟».

فأضافت بنبرة اعتذار: «وما زلت أشعر بالضعف».

تأوه وانحنى ليحملها مرة أخرى وهو يقول مستغرباً: «دوار البحر؟ لم يمض عليك سوى ربع ساعة في البحر».

بعد ذلك بساعة كانت تستلقي في السرير وقد ارتدت قميص نومها فيما جلس راوول عند أسفل السرير يتفحصها باهتمام. قالت متذمرة: «لا أريد أن أتمدّد هنا كالجثة.. أشعر بأنني في أحسن حال الآن».

فقال معنفاً وكأنه يتحدث عن أمر يمكنها تلافيه: «الناس الأصحاء لا يغمى عليهم... إذا قال الطبيب إن حالتك جيدة،

يمكنك أن تنهضي من السرير».

شهقت: «الطبيب؟ أي طبيب؟».

سمع طرقاً على الباب، فقال: «لا بد أنها وصلت. لقد اتصلت بها من السيارة وطلبت منها أن تزورنا».

جلست هيلاري مذعورة: «لا أريد أن أرى طبيباً... بالله عليك... لست بحاجة إلى ذلك».

- دعيني أحكم بنفسي على هذا...

- وما شأنك أنت بذلك؟

- أنا زوجك، ومسؤول عن صحتك وسعادتك حتى لو لم تكوني ممتنة لذلك.

أخرسها الخجل والإحراج فيما فتح الباب لامرأة في منتصف العمر، ذات شعر رمادي مكوّم فوق رأسها.

قالت هيلاري عندما أبدي راوول عدم رغبته في أن يغادر الغرفة: «أريد أن أكون وحدي مع الطبيب».

أجابت على أسئلة الطبيبة بصدق، ثم استسلمت للفحص. وأخيراً قالت الطبيبة باسمة: «لا شك أنك سبق وخمّنت السبب. أنت حامل».

شحب وجه هيلاري لأن كل ما فكرت فيه في هذه اللحظة هو كيف سيتلقى راوول هذا الخبر وسألت الطبيبة: «هل أنت واثقة؟».

فأومأت الطبيبة: «ثمة دلائل لا تخطىء».

أسرّت هيلاري إلى المرأة قائلة: «لا أريد أن أخبر زوجي الآن».

لقد أذهلها ما سمعت. ستنجب طفل راوول. قد يكون طفلاً بشعر أسود وابتسامة جذابة، أو طفلة جريئة بعينين رائعتين كعيني

النمرة، لديها قناعة بأنها ستحكم العالم. نعم... ستنجب طفل راوول وهو سيكرهها لذلك.

عندما دخل راوول الغرفة لم تستطع أن تنظر إليه. نزلت من السرير فسألها: «ماذا تفعلين؟».

- كنت أعاني من دوار البحر وقد تحسنت الآن وأريد أن أرتدي ملابسي.

حملها وألقى بها على السرير: «لا. الطبيبة قالت إنك بحاجة إلى طعام ملائم وكثير من النوم، وأنا سأحرص على تنفيذ نصائحها».

قالت له بغضب حين وقف بجانبها يراقبها وهي تتناول طعامها اللذيذ الذي أحضر لها على صينية مزينة بالأزهار: «عمل الخير لا يناسبك».

منحها ابتسامة طويلة جعلت دقات قلبها تتسارع، وقال: «أنا أفكر فقط في رغباتي».

- أحقاً؟

- عليك أن تكون في صحة جيدة ونشيطة لتنفّذي ما أنتظره في الأيام القليلة القادمة، فقد قررت أن آخذ فترة استراحة...

- لكنك لا تأخذ عطلات...؟

- امنحيني نفسك.... وسريراً، واتصالاً بمجلس الإدارة فآخذ عطلة.

احمر وجهها حتى منبت شعرها... فتمتم بصوت أجش: «سوف أتخلص من تأثيرك هذا فيّ، أو أموت وأنا أحاول ذلك، يا عزيزتي».

- ماذا ستفعل عندما تتخلص مني؟

أثناء الصمت الذي تلا، كانت أضعف من أن تستطيع حتى التنفس بانتظار جوابه.

- أعيدك إلى بلدك ثم أعود إلى حياتي الماضية الحرّة غير المعقدة، كرجل أعزب.

- ولماذا تنتظر؟ لماذا لا تفعل هذا الآن؟

- ما زلت مستمتعاً بك، فأنت تختلفين عن عشيقاتي السابقات.

فقالت بحدة: «وهل لمشاعري أيّ حساب في هذا؟».

- إنني أجعلك تشعرين بلذة هائلة، وأنت تعلمين ذلك.

ذكّرها بذلك ببرودة عديمة الرحمة وإلفة العشيق القاسية، مدركاً تماماً قدرته على أن يقلب كيانها رأساً على عقب لهفة وشوقاً.

عادت تستند إلى الوسائد خلفها وتغمض عينيها المجروحتين بوقاحته. ذكرت نفسها بأن الصبر هو مفتاح الفرج وأنّ لا ضير أحياناً من السير مع التيار. قد لا تحتاج أبداً أن يعلم أنها حامل منه. هل عليها حقاً أن تخبره؟ عندما سيفترقان، لن تراه مجدداً، وهي تريد طفلهما ومتلهفة إليه للغاية، ولديها الكثير الكثير من الحب لتعطيه. وهي مستعدة لأن تقوم بأشق الأعمال لكي تمنح طفلهما بيتاً لائقاً. كيف يبلغ بها الجبن حد البحث عن عذر لنفسها لئلا تخبر راوول على الفور أنها حامل منه؟

* * *

همست له حالما ابتعد البائع عنهما: «أخبرتك أنني لا أريد شيئاً. ما الذي نفعله هنا؟»

نظر إليها بتسلية: «ليس لديك مجوهرات وقد حان الوقت كي أشتري لك بعضاً منها».

وقفت على أطراف أصابعها لتهمس بنبرة التسلية نفسها: «ليس من

الحكمة أن تخرج فكرة العشيقة من غرفة النوم... بدأت المزحة...».

- هذه المرة أنا موضوع المزاح. ما من ساعية خلف المال تضيّع فرصة كهذه.

أجفلت هيلاري بدهشة وألم، واتسعت عيناها واستقرتا على ملامحه السمراء. مدّ ذراعه يحيط بها خصرها النحيف ليمنعها من الابتعاد عنه وهو يحثها بصوت أجش ودود: «فكري في ما قلته لك لتوّي. في الواقع، قد لا تجدين هذا إلا في الأفلام. أعترف بأنني أسأت الحكم على دوافعك منذ حوالى أربع سنوات...».

تنفست هيلاري بعمق، ثم سألته: «هل أنت جاد؟».

- إلى أقصى حد.

واستغل صمتها ليجلسها على مقعد بجانب منضدة عرض المجوهرات وهو يقول: «البعض يعبر عن أسفه بتقديم الأزهار...».

قالت لاهثة: «هل هذا صحيح؟».

لم تستطع أن تفكر بشكل قويم، فقد أخرجها من حالة الألم والإحباط لينقلها مباشرة إلى حالة الارتياح والسعادة.

- والبعض لا يعبر عن أسفه بالكلام أبداً، وآخرون مستعدون حتى لشراء المجوهرات لك آملين ألاّ تتوقعي منهم تعفير وجوههم بالتراب.

أشرقت ابتسامتها كشمس الصباح، وكادت تقهقه ضاحكة لأنها لم تنس قط ما قاله مرة عن أن تعفير الوجه بالتراب هو للفلاحين فقط.

وبعد ساعة، وبعد أن عادا إلى البيت، أخذت تتمشى على الشرفة فيما راح هو يشرب كأساً من العصير. وكان النبات الغزير يغطي الشرفات والدرجات التي تنحدر نحو التلة ومن ثم إلى

الشاطىء الخاص في الأسفل.

رفعت معصمها فالتمعت الساعة البلاتين في ضوء الشمس المتسرّب من بين أوراق العريشة فوقها. وقالت تداعبه: «الخروج معك مربح كما يبدو».

كانت تراقبه طوال الوقت مستمتعة بقربه، وبرجولته العنيدة الجريئة، وحتى بإرادته العنيفة التي لا تلين والتي جرؤت على أن تعارضها في متجر المجوهرات ذاك.

وبما أنه اعتاد أن يواجه تفحصها له، رفع حاجبه الأسود، وعيناه اللامعتان مليئتان باللوم لعنادها في متجر المجوهرات ذاك وعدم قبولها أكثر من تلك الساعة هدية منه. ثم قال: «أردت أن أغطيك بالماس».

فقالت ساخرة: «سأبدو حمقاء تماماً».

- تبدين أشبه بإلهة وثنية، يا حلوتي.

خفق قلبها. وحده راوول يتصورها كما لا يستطيع أن يفعل أي رجل آخر. وتملكها الخجل من نظراته المقيّمة، وتمتمت باضطراب: «لم تفسر لي بعد لماذا غيرت رأيك ولم تعد تعتبرني أسعى خلف المال».

توتر وجهه القوي وأجاب: «عندما ادعيت في لندن أنك أعدت معظم المبلغ الذي وهبتك إياه عند توقيع عقد المحاسبة وتبين أن المال ما زال موجوداً حيث لم يطلبه أحد وذلك منذ حوالى أربع سنوات».

- لكن ما الذي حدث للرسالة التي كتبتها لبول كرويرو المحامي؟

- لم تصله قط. حينذاك، كان بول قد انتقل إلى مكاتب محاماة

جديدة، ولابد أن رسالتك أرسلت إلى عنوانه القديم فضاعت. إن بول متكدر جداً لكل ما جرى. وهو يعلم الآن أنه كان الحلقة المفقودة في السلسلة، وهذا هو سبب سوء التفاهم الذي جرى بيننا.

كانت هيلاري مسرورة لمناقشتها موضوع المال الذي تلقتها منه أخيراً. قالت: «لم أكن أنوي قط أخذ نقود منك، لكنني فعلت، لذا لا يمكنك أن تلومه على الفكرة السيئة التي كونها عني».

- لم يكن لديه الحق في أن يحكم عليك بذلك الشكل...

بدا الألم جلياً في عيني هيلاري، وتملكها إغراء في أن تقول له إن بول كوريرو اكتسب على الأرجح هذا الموقف المتغطرس الرافض لها منه هو نفسه.

قالت: «أريد أن أفسر بعض الأمور. عندما تقابلنا لأول مرة، كنا، أنا وأختي، نعيش في منطقة حقيرة. وكان رفاقها يظنون أن سرقة المتاجر أمر مسل. كانت تهرب من المدرسة وكنت تعبة من السيطرة عليها».

كان راوول يصغي إليها باهتمام بالغ: «لم يكن لدي فكرة عن مدى قساوة حياتك البيتية، فقد تصرفت ببشاشة على الدوام».

- العبوس لا يجعل الأمور أفضل. منحتنا نقودك بداية جديدة فاستأجرت شقة، وأنشأت صالون حلاقة، ونقلت إيما إلى مدرسة أخرى. المشاكل التي كنا نعاني منها توارت كلها. ولم أعد مضطرة للعمل ليلاً، فاضطرت هي إلى البقاء في البيت ومراجعة دروسها. وفي السنة التالية نالت منحة دراسية ومنذ ذلك الحين لم تعد تنظر سوى إلى الأمام.

- يجب أن تفخري بنفسك. أتمنى لو كنت أكثر صراحة معي حينذاك...

عندما اشتبكت نظراتها بنظراته، جف فمها وحوّلت نظراتها: «حينذاك، لم تشأ أنت أن تعرف عني شيئاً».

- لم أسمح لنفسي بأن أعرفك جيداً فدفعت أنت الثمن. لكن هذا كان في الماضي، أما هذا فهو الآن...

وأمسك بيدها يطبع عليها قبلة محمومة.

ارتعشت وارتجفت ساقاها. وبتمهل بالغ نزع عن كتفيها الوشاح الحريري، فتمتمت: «إننا في وضح النهار...».

- إنك تجفلين بسهولة.

كانت واهنة القوى مستعدة له من دون أن يقوم بأي جهد مبالغ فيه.

راح رأسها يدور، ولم تعد تستطيع أن تتنفس. ثورة مشاعرها جعلتها تنسى كل شيء ما عدا مشاعره العنيفة الساحقة.

بعدئذ، حمل جسدها المتعب المسترخي بين ذراعيه وأخذها إلى غرفة النوم المنعشة. ابتسم لها راضياً فأرادت أن تبكي حباً وعشقاً. أرادت أن تدوم هذه اللحظة من المودة الصامتة إلى الأبد. أزاح شعرها عن عينيها وقبلها وضمها إليه فشعرت بالانفعال وودّت لو تمضي بقية حياتها كهذه الدقائق وهي في أسعد حالاتها.

- أنا أعبد جسدك، وأقسم أنه ازداد امتلاءً منذ رأيتك لأول مرة.

خفضت هيلاري بصرها لتخفي الذعر في عينيها، فيما عاد يقول بصوت خافت: «هذا لا يعني أنني أتذمر. أنت تفهمين ما أعني. لاحظت رغبتك المتزايدة في أكل الشوكولا السويسرية...».

إنه يظنها تسمن لأنها تكثر من تناول الشوكولا. ابتعدت عنه بسرعة.

تأوه بصوت مرتفع، ثم شدّها بيده يعيدها إليه: «لا تكوني حساسة للغاية. إن النساء يتلهفن إلى أن يكون لهن جسد كجسدك. سيسرني للغاية أن أزوّدك دوماً بالشوكولا. من المنعش جداً أن يكون المرء مع امرأة تأكل ما تريد».

لا يكفي أنه يراها سمينة، بل نهمة أيضاً. ليت هذا صحيحاً! ليت ازدياد وزنها وامتلاء جسدها بسبب الشوكولا فقط!

- سأستحم.

وخلصت نفسها منه وأسرعت إلى الحمام، فسألها: «أي جهنم تجعلك لا تقدّرين جمالك؟».

- لقد رأيت سيلاين... بجانبها أبدو قصيرة وسمينة.

التمعت عيناه غضباً وهبّ من السرير: «سيلاين تطفىء رغبتي، أما أنت فتثيرينها. لا أستطع أن أبقي يديّ بعيدتين عنك أكثر من ساعة، حتى أنني تركت عملي في المصرف لأكون معك».

اغرورقت عيناها بالدموع: «هذه مجرد رغبة جسدية».

ساد صمت مطبق، وانتظرت منه أن يخرق هذا الصمت ولو بكلمة اعتراض واحدة.

بادلها النظر بعناد عنيف. كانت عيناه تلتمعان بغموض، وجسمه الجبار يقف متأهباً وكأنه يستعد للدفاع عن نفسه ضد المهاجمين.

خاب أملها، وشعرت بغصة آلمتها، إذ لم ينكر قولها هذا. عليها أن تكون أذكى من أن تظنه سيفعل. وبابتسامة سريعة أرادت بها أن تقنعه بأن هذا النوع من العلاقات يناسبها، دخلت الحمام وأقفلته خلفها، ووقفت تحت المياه المتدفقة فيما دموعها تنهمر على خديها. كبحت شهقاتها. كل ما يمكنها أن تقدمه له علاقة مادية بحتة، ولا يمكنه أن يقول إن لديها أي سبب للتذمر.

مضى أسبوع منذ أحضرها إلى جزيرة سردينيا ليقيما في هذه الفيلا الخلاّبة حيث يستمتعان بعزلة كاملة ورفاهية غير متكلفة.

بقيا متلازمين من دون انفصال مدة سبعة أيام. فكانا يتناولان طعامهما على الشاطىء، ويسبحان في ضوء القمر. فضلاً عن وجبات العشاء الشاعرية المتأخرة، والقيلولات الطويلة في الأيام الحارة. تبادلا أحاديث طويلة في مواضيع نادراً ما كانا يتفقان عليها. كان رفيقاً ممتعاً إلى حد لا يصدّق. وعندما يحتاج أن يعمل لساعة أو اثنتين، كانت تتكوّر في مقعد قريب وفي يدها مجلة، لتبقى في رفقته. بالنسبة إليه، كانت هذه هي السعادة المثالية، لكنها أيضاً تمثل تحدياً إذ راحت تكافح ببطء لتتعود على فكرة أنها حامل منه.

كان شعورها الجسدي رائعاً، ولكن كان عليها أن تتوخى الحذر من ناحية الأكل والتعب. واعتاد أن يغيظها مداعباً لبطء حركاتها، لكن جسدها كافأها على هذا الاحتراس الذي تعلمته فلم يعد الغثيان يسبب لها مشكلة كبيرة، ولم تشعر بالدوار سوى مرة واحدة عندما وقفت بسرعة فائقة. كما أن جسدها تغيّر إلى درجة أن راوول نفسه لاحظ أنه امتلأ. لن تستطيع أن تخفي حملها أكثر إلاّ أن خوفاً بالغاً تملّكها من أن تخبر راوول بحملها هذا.

هذه المرة قررت ألاّ تبني قصوراً من رمال. كل صباح، وقبل أن تقترب منه لتوقظه بقبلة، وهذا ما أدركت أنه يحبه، كانت تذكّر نفسها بفتور ببعض الحقائق...

إنه لا يحبها، وشعوره نحوها هو رغبة وحسب، وهذه الرغبة تجعله عشيقاً لا يشبع. أما تمضية ساعات في الحديث معها، وأما الحنان والاهتمام البالغ بها اللذان يظهرهما أحياناً، فهذا موضوع آخر. على أيّ حال، إنه رجل محنك إلى حد كبير ولا يمكنها أن

تتصوره يتصرف بفظاظة أو بجهل. إنها ليست زوجته بكل معنى الكلمة لأنه أعطاها ذات مرة أجراً للعب دور العروس.

إنها الزوجة التي اشتراها وليست الزوجة التي اختارها. كما أنها لا تتمتع بالصفات التي في الرفيقة التي سيختارها في النهاية! وتلك الصفات كانت قد استخلصتها منه واحدة تلو الأخرى من دون أن يدرك كمّ المعلومات التي يكشفها، فهو يحب السمراوات الطويلات وآخر عشيقاته كانت رائعة الجمال. إنه يعتبر الخلفية والنشأة هامتين للغاية، فضلاً عن التعليم الجامعي. وهي فاشلة من كافة النواحي هذه. فهي ليست ولن تكون أبداً الزوجة التي سيرغب في استمرار زواجه بها.

لهذا، سيشكّل خبر حملها صدمة بالغة له وكارثة أيضاً. ولهذا السبب راوغت طيلة سبعة أيام حيث عاشت كل لحظة ثمينة منها وكأنها آخر لحظات ستمضيها معه. الوقت حان الآن للتحدث إليه.

ارتدت سروالاً حريرياً أزرق بلون عينيها مع بلوزة مطرزة تناسبه. منذ شهر فقط كانت تكثر من الزينة على وجهها، لكنها خففت من ذلك الآن. لقد قدّمها راوول إلى عالم مختلف، ومن الطبيعي أن تتفحص النساء في ذلك المجتمع الخاص. لطالما كانت شديدة الملاحظة وسريعة التعلم، وسرعان ما أدركت كيف يمكن أن ترفع من شأن مظهرها مقارنة مع الآخرين. أطالت شعرها بحسب ذوق راوول... إذ قال لها ذات مرة بإعجاب بالغ: «إنه ذو لون خلاّب أريد أن أراه مسترسلاً على ظهرك أشبه بسلاسل من فضة يا جميلتي».

حينذاك، أجابته متذمرة: «سيتطلب وقتاً طويلاً حتى يصل طوله إلى كتفيّ فقط»

- سأنتظر. يمكنني، إذا أردت شيئاً، أن أكون صبوراً جداً.

ولكي تسرّه، وعدته بألاّ تقص شعرها مرة أخرى. لم تسمح لنفسها بأن تتساءل كم من الوقت سيتطلب ترك شعرها الحاد الأطراف حتى تصبح تسريحته هذه، أكثر الأمور التي سيشعر نحوها بعدم الاكتراث.

كانت المائدة قد أعدت على الشرفة للعشاء. وكانت جميلة للغاية بفضل فانوس الزجاج الملوّن المعلق على شجرة التين العتيقة والشموع التي تتألق في كؤوس بلورية والصحون الخزفية المذهبة. ومن بعيد من بين النباتات الوافرة، كانت ترى بركة السباحة تتألق في ضوء القمر.

كانت هذه فيلا راوول. أحياناً كان يزورها مرة في السنة، وأحياناً لا يفعل. كان لديه أملاك كثيرة في أنحاء العالم، فهو لا يحب الفنادق. حتى هنا، في أحد أبعد المساكن في الجزيرة، كان راوول يتلقى أفضل الخدمات، فضلاً عن تواجد طاه عند الطلب يحضّر له أشهى الأطباق. ومع هذا الثراء الذي لا يمكن تصوره، كان راوول يعتبر تمتّعه بمعدل من الحرية والراحة لا يحلم بمثله الآخرون أمراً مسلماً به. كان صاحب سيطرة وسلطة، فكيف سيكون رد فعله على ما ستخبره به؟ على وضع لم تسمح له بأن يسيطر عليه؟ وارتجف فمها الناعم للمشاعر العنيفة التي جاهدت لكي تكبحها.

خرج إلى الشرفة وتقدم منها وهو يقول بصوت أجش: «استديري نحوي».

فأطاعته بشيء من التصلب فيما أضاف: «تبدين جميلة.. إعتبري نفسك محظوظة إذا استطعت التحكم في نفسي إلى ما بعد العشاء».

أثناء الصمت المتوتر، بللت فمها الجاف بجرعة من المياه المعدنية.

استقرت عيناه الذهبيتان الداكنتان عليها، والتوى فمه الجميل هازلاً: «تقولين إنك قصيرة وسمينة.. لا أظن ذلك..».

احمر وجهها تعاسة. أرادت أن تبقي شفتيها مطبقتين، وتندفع إلى ما بين ذراعيه تحتضنه بعنف، لتتمسك بالسعادة التي منحها إياها.

وأردف: «كنت كئيبة متقلبة المزاج في الأيام القليلة الماضية».

فنظرت إليه بارتباك: «أ.. أنا..».

- في لحظة تضحكين كالمجنونة، وفي اللحظة التالية تتملكك الكآبة وتسيل دموعك. هذه ليست عادتك.

أجفلت هيلاري، ثم شجعت نفسها على الوقوف بصلابة الصخر، لتقول: «لدي ما أريد أن أخبرك به».

٩ - أكرهك

ارتسمت على وجه راوول البالغ الوسامة ابتسامة وقحة: «لا تعتبري ما قلته انتقاداً لك. أنا رجل عملي، وأرى موهبتك الطبيعية في التمثيل المسرحي خلاّبة. ولكن هل لنا أن نأكل أولاً؟ عليّ أن أعترف بأنني جائع للغاية».

أخذت تعض شفتها السفلى متوترة. ثقته البالغة بأنها لا يمكن أن يكون لديها ما يستحق أن تغضي به إليه أفقدتها توازنها. جلست أمام المائدة، وعندما قُدم لهما الطبق الرئيسي، كان حديثها يقتصر على إجابات مختصرة لا تتعدى الكلمة الواحدة. قال: «عندما تصبحين بهذا الهدوء، أشعر بالقلق».

فقالت بضيق: «إنني أكثر الكلام أحياناً».

- لكنني اعتدت ذلك حتى أصبحت أحبه، يا عزيزتي.

وأخذ يلامس بأصابعه الخشنة أصابعها، التي كانت تريحها على غطاء المائدة. أضاف: «يبدو أنني أخطأ التقدير حين قلت لك ما معناه إنّ ما لديك لا يمكن أن يكون هاماً».

ابتلعت ريقها بصعوبة: «نعم.. لكنه ليس أمراً يمكنك التكهّن به وأنا...».

بدا العنف في نظراته: «هل عاشرت ذلك الرجل الذي فاجأته على عتبة بابك في لندن؟».

صدمها هذا السؤال البارد فهتفت: «غاريث؟ لا لا. طبعاً لا!».

www.elromancia.com

فقال بجمود: «إني أتحقق وحسب من أسوأ سيناريو تخيّلته».

فقاطعته: «هلاّ تصغي إليّ قبل أن تقول شيئاً؟».

- لم أتعوّد أن يصيح بي الناس لأسكت.

- لا تغضب مني.. أعرف أن ما سأقوله صعب التصديق ولكن لا تغضب مني. نحن مسؤولان عن ذلك، نحن الإثنين.

توتر فكه وتأملها بعينين ضيقتين: «ما الموضوع؟ لصبري حدود!».

أخذت تعبث بالطعام وقد تملّكها الخوف، وشعرت بفراغ في معدتها لعدم تمكنها من تناول سوى القليل من الطعام.

- أنا حامل. وقد حدث هذا في الأسبوع الأول حين كنّا معاً.

تملكه شحوب بالغ، فأردفت: «كنت أعلم أن هذا سيصدمك، فأنا صُدمت أيضاً».

أخذت عيناه الذهبيتان اللامعتان تتفحصانها وتتأملان جسدها المتشنج. وبحركة جبارة، انتصب واقفاً وسار إلى حائط الشرفة بخطوات واسعة أشبه بنمر يبحث عن فريسة، ثم وقف ينظر إلى الليل.

وفي هذا الصمت المطبق، راح اندفاع الأمواج إلى الشاطىء يصدر صوتاً عالياً موحشاً.

تنحنحت بارتباك: «لم أحلم قط بأن نعيش كزوجين. وعندما حدث هذا، لم يخطر في بالي ما يتعلق بمنع الحمل. أمور كثيرة حدثت بيننا، وكنت أعلم أنه ينبغي عليّ احترام شروط اتفاقنا فتملكني شعور بالغ بالذنب.. كل هذه الأمور وقفت في طريقي».

كان لا يزال بوليها ظهره فتلهفت إلى أن يواجهها. كانت كتفاه العريضتان متصلبتين من التوتر وعضلاته المفتولة واضحة تحت

قماش قميصه الرقيق الأسود القصير الكمين.

- أعلم أنك منزعج من هذا.. لا بأس، أفهمك. فأنت لم تكن تتوقع أن يتطور أمرنا ليصل إلى هذا الحد. ولكن أنا أيضاً لم أتوقع ذلك إلاّ أنني لم أستطع أن أتصرف كما يجب.. وهكذا، فلندع مناقشة هذا...

عند سماعه توسلها المتحشرج كي يتفهّم الأمر استدار وألقى عليها نظرة كئيبة من عينين مظلمتين عديمتي الإحساس ما بعث في جسدها قشعريرة. وقالت متلعثمة: «أنا أعلم.. أنا أعلم. لعلك لا تريد حتى أن نناقش الأمر. قد لا يكون هذا طفلاً اتفقنا على أن ننجبه، لكنني سوف.. سوف أرحب به على أيّ حال. رغم أنني أشعر حالياً بالخوف والقهر».

سكب لنفسه كأس ماء وابتلعها بجرعة واحدة. بدت الخشية على وجه هيلاري فنهضت من خلف المائدة ثم تقدمت إلى وسط «الفيراندا» بساقين متصلّبتين: «أرجوك.. قل شيئاً...».

- أنت الآن والدة ابني مستقبلاً.

بدت عبارته أشبه بجملة مهينة بأدب، فجمد الدم في عروقها وأصابها الشحوب، بينما تابع يقول: «عليّ أن أكون شديد الحذر في ما أقوله لك. للزوجة الحامل حقوق كثيرة أقلها أخذ حالتها بعين الاعتبار. منذ متى عرفت هذا؟».

- منذ استدعيت لي تلك الطبيبة الرقيقة بعد أن أغمي علي.

أطلق راوول ضحكة خشنة: «أمنذ ذاك الحين؟ كيف استطعت إخفاء بشارتك هذه طوال هذا الأسبوع؟».

- بسهولة.. لو استطعت الهرب منها، لفعلت. لكني لم أشأ.. لم أشأ أن أفقدك.

نظر في عينيها بقسوة: «أنت لم تملكيني قط، ما عدا بالنسبة إلى النقطة الأساسية».

فهمست بصوت أجش: «أعلم هذا، لكن هذا يوشك أن يدمّر ما بيننا».

- لا يفترض أنك تعلمين بماذا أفكر أو أشعر أو حتى ماذا أنوي أن أفعل لاحقاً.

- أنت حر في أن تخبرني بما تفكر فيه، فأنا لن أتأثر.

كانت متلهفة لردم الهوة التي فتحت بينهما، وإذا كانت الحقيقة ستؤلمها، فليكن. تصلبت ملامح وجهه: «حسناً جداً. ولماذا تدهشني فعلتك هذه؟ الأطفال في أسرة ساباتينو يأتون دوماً بثمن باهظ».

فقالت بعنف: «هذا لا ينطبق على طفلنا».

بدت في عينيه نظرة قاسية امتزجت بالسخرية وهو يتجاوزها ليدخل إلى المنزل وكأنها غير موجودة. وبعد لحظة من الارتباك ركضت خلفه فأدركته في الردهة الرئيسية يتهيأ لمغادرة الفيلا، فقالت مرة أخرى بصوت مرتجف فيما كانت عيناها حازمتين: «هذا لا ينطبق على طفلنا.. هل أنت خارج؟».

طرحت سؤالها الأخير مقطبة، فنظر إليها ساخراً: «ما رأيك؟».

- إلى أين ستذهب؟

- لا شأن لك بهذا.

بعد فترة طويلة من ذهابه، بقيت تتسكع في الردهة محتضنة نفسها وكأنها تشعر ببرد. وأخيراً، تمالكت نفسها وخرجت عائدة إلى الشرفة، لتجد أنّ الخدم رفعوا الأطباق ورتبوا المكان. فكّرت في الحياة في أحشائها، وتساءلت إن كان الجنين يعاني لأنها لم تأكل

فاتسعت عيناها كالمجنونة، وطلبت خبزاً محمصاً وكاكاو لعشائها. حاولت طيلة الوقت ألاّ تفكر في تصرف راوول الذي بدا كأنه يحتقرها ويستخف بها كلياً، أو يعتبر كأنها خططت متعمدة لهذا الحمل لكي تبيعه ابنه بأغلى ثمن ممكن. لقد جرح شعورها لكنها ما زالت تفضّل أن يكشف عن شعوره. وتمنت لو أنه لم يخرج من البيت. وبعد ساعة، اتصلت به على هاتفه الخليوي وسألته ببشاشة زائفة: «هل أنت عائد إلى البيت قريباً؟».

فأجاب بصوت خافت بارد: «لن أعود إلى البيت على الإطلاق».

فتمتمت بقلق: «قبل أن تقرر ذلك، أنبهك إلى أنّ بقاءك في الخارج طوال الليل سيجعلني غاية في التعاسة. لا أظن أنّ بإمكاني أن أبقى هنا جالسة بانتظارك، بل سيتملكني القلق فأخرج لأبحث عنك...».

- لا أريد أن نسترسل في هذا الحديث.

وأقفل الخط في وجهها.

وبعد نصف ساعة، عادت فاتصلت به. وعندما أجاب سمعت صوت امرأة بصوت خافت قربه، فاعتصر قلبها وسألته شاعرة بالغثيان: «هل أنت مع امرأة؟».

- إذا اتصلت بي مرة أخرى فلن أجيب.

- يمكننا أن نتشاجر... لكنني لن أتسامح أبداً بالنسبة إلى الخيانة الزوجية...

واختنق صوتها بالدموع.

- الابتزاز العاطفي لا ينجح معي.

- ماذا عن النوبة الهستيرية؟ اسمع أعلم أنني أبدو مخبولة.

ولكن كل ما أريده هو أن تعود إليّ لنتحدث.

- لكنني لا أريد ذلك، وأنت لن تجعليني أفعل ما لا أريد.

كانت الساعة الواحدة صباحاً عندما وقف راوول على عتبة باب غرفة النوم، وكانت هي تستلقي مستيقظة في ضوء القمر بعد أن تركت الباب مفتوحاً لكي تستطيع سماع صوت خطواته. انتصبت جالسة وأشعلت النور الجانبي. راح راوول يحدّق إليها من آخر الغرفة وقد تشعث شعره الأسود واسودّ فكه العنيد بلحيته النامية. ومن دون تردد، نزلت من سريرها ثم ركضت نحوه تلقي بنفسها عليه. لقد عاد. كان هذا ما يهمّها في هذه اللحظة.

- لا...

كلمة حاسمة وعنيدة للغاية بعد أن أبعدها عنه بيدين باردتين.

تراجعت خطوة وقد صدمها هذا الرفض، واعية فجأة إلى أنها لا تبدو في أحسن حال بشعرها الأشعث وعينيها الحمراوين المنتفختين. كما أدركت بشكل مخيف أنها عاجزة عن أن تقول أو تفعل أي شيء لتتمسك به فهي تعلم أن هذا لن ينجح. حتى إذا زحفت على الأرض فسيخطو من فوقها ويزداد احتقاره لها.

قال: «لقد توصّلت إلى قرار».

فتشجعت وقالت: «في الزواج، القرار يحتاج إلى أن يتفق عليه الطرفان».

فقال من دون تردد: «ليس إذا كان أحدهما مخطئاً».

أخذت نفساً بطيئاً. إذا تشاجرت معه فسيزداد غضباً. لن يضرها أن تظهر بعض الخضوع والمذلة ما يمنح فرصة للمشاعر لتهدأ.

قال ببطء ومن دون أي تغيير في ملامحه: «أريدك أن تخضعي لفحص طبي للتأكد من تاريخ الحمل. وقبل أن يولد الطفل أريد أن

أتأكد من أنه من صلبي».

تراجعت مبتعدة عنه وقد تشنّجت ملامحها من الألم لهذا الاحتقار وهمست: «هل لديك شكوك من هذه الناحية؟».

وتملكها الفزع! إنه يشك في أبوّته لهذا الجنين الذي تحمله.

- بعض النساء يرتكبن جريمة من أجل نسبة مئوية ضئيلة مما سيكسب هذا الطفل من الناحية المالية.

- لا أظن أن أي امرأة مستعدة لأن ترتكب جريمة لكي تكون مكاني في هذه اللحظة.

وارتجفت لأنه، وبدلاً من أن يعود ليتفاهما، عاد ليبدد آمالها.

وأردف وكأنها لم تتكلم: «من الطبيعي أن أطالب بفحص الحمض النووي بعد ولادة الطفل، فلعلك حملت أثناء الأسبوعين اللذين أمضيتهما في لندن. أظن أن هذا غير محتمل، لكنني سأكون أحمق إذا لم أتأكد تماماً».

فقالت وظل ابتسامة على فمها المتوتر: «نعم... ولماذا تتردد ما دام لديك فرصة ذهبية أخرى لإذلالي؟».

- وماذا كنت تتوقعين؟ أن أصدقك؟ أرفض أن أصدق أن هذا الحمل حدث صدفة.

واستقرت عليها عيناه الساخرتان: «على أيّ حال، حملك بابني يضمن لك العيش برفاهية طوال حياتك».

قالت بكدر بالغ: «أنت لا تنصفني. إن كنت لا تثق بي على الإطلاق فكيف يمكنني أن أثبت لك أنك ظلمتني بظنك هذا؟».

فقال: «لكنني لم أظلمك...».

- اليوم قلت إنك لم تعد تعتبرني ساعية خلف المال.

- بعد ما تبين لي الآن أقنعني بالعكس...

- أنى كان لي أن أعلم أنني سأحمل بعد أسبوع واحد معك؟ ما كنت لأختار ظرفاً مماثلاً لأحمل بأول طفل لي. لماذا أرغب بأن ألصق بولدي لعنة والد يكرهه، ويكرهني أنا؟

- لا أكره أبوّتي، ولا أكرهك أنت.

فبسطت يديها بإحباط: «كل غضبك سببه هو أنني لم أوضح لك مسألة زواجنا حين كنت فاقداً لذاكرتك...».

- لكنك بعد ذلك، كذبت عليّ مرة بعد مرة.

- لم أكن أظن أنني أسبب ضرراً... لذا انجرفت قليلاً.... كنت أعيش حلمي....

قال شامتاً بسخرية: «ها أنت ذي أخيراً تنطقين بالحقيقة. لقد أغواك أسلوب حياتي ومستواها إلى حد لم تدركي معه إلى أي حضيض عليك أن تهوي لتستمتعي بهما».

فأطلقت ضحكة قصيرة: «المعلوماتك الخاصة، كان حلمي زواجاً برجل يعاملني على قدم المساواة. نعم، كم كان تصرفي محزناً. أن أعطيك دوراً في سيناريو فيلم كهذا! أن أحلم بالرجل الذي لم يقبل بأن يخرج معي ولو مرة واحدة حين توسلت إليه! لكنه كان حلمي أنا وليس حلمك. لهذا أنا...».

- يا إلهي! جعلتني أعيش حلمك الغبي.

رفعت رأسها عالياً والتمعت عيناها كالماس: «الغريب أنك بدوت غاية في السعادة حين كنت تعيش حلمي معي...».

تصلب جسده وكأنها صفعته فيما شحب وجهها وبان التمرد عليها. ساد صمت مشحون بالتوتر ولمع غضب أسود في نظراته العنيفة، لكنه قال: «دعينا نركز كلامنا على الطفل».

وبصعوبة بالغة حاولت أن تركز ذهنها المرهق على المهمة الصعبة

وهي إقناع راوول بأنها لم تخطط لهذا الحمل: «اسمعني، أرجوك، عندما عشت معك كزوجة لك لم أفكر في النتائج. لم أكن مضطرة من قبل إلى الاهتمام بمسألة منع الحمل. كنت لا مبالية ليس إلاّ».

ونظرت إليه متوسلة قبل أن تردف: «كما أنك أنت أيضاً لم تفكر في المسألة».

فرفع حاجبه ساخراً: «كانت موانع الحمل من آخر اهتماماتي. فقد كنت أعاني من فقدان الذاكرة وأعيش مع امرأة غريبة عني تماماً».

- أذكر أنك وجدت تلك الفكرة مثيرة أكثر مما اعتبرتها.

تجرأت على أن تذكره بذلك متلهفة إلى تقويض تحكّمه بنفسه واختراق تحفظه.

- اخترت أن أثق بك وكانت تلك غلطة. وككافة أخطائي توقعت أن أدفع الثمن. لكن، ولكي أعرف شخصيتك بالضبط، كان عليك أن تقيمني معي. صاحبة مشاريع دخلت سريري لكي تربح ثروة كبرى!.

ثارت ثائرتها وأخذت ترتجف وتعاظم في نفسها الألم والتعاسة: «إذا لم تخرج فسأصرخ. سأهاجمك وأضربك!».

نظر إليها وكأنها طفلة، ثم حملها بين ذراعيه قبل أن تعرف نيّته: «كفى تمثيلاً».

فصرخت به غاضبة: «أنزلني على الأرض».

- لا. لقد تأخر الوقت ويبدو عليك الإرهاق. لا بد من أن تنامي...

- سأذهب إلى السرير حين أشاء...

- لماذا تظنينني عدت هذه الليلة؟

طرح هذا السؤال بوضوح بالغ ما جعلها تكف عن المقاومة وتسترخي بين ذراعيه وهي تجيب: «لا أدري...».

- أنت زوجتي وحامل بابني ولا أريد أن أغامر بصحتك مهما بلغ مقدار غضبي.

يا له من رجل حقير... إنها تكرهه...!

وأغمضت عينيها بشدة. أرادت أن تصرخ في وجهه لكنها كانت تعلم أنه سيقرأ الكثير من وراء صراخها. بقيت هادئة كالفأرة وهي تراه يعيدها إلى السرير. كان يتصرف وكأنها لوح زجاج مشقوق، وتذكرت رغبته العنيفة على الشرفة منذ ساعات قليلة فكادت تبكي. لقد دثّرها لتوّه وكأنها جدة جدة جدته ولأول مرة نام بعيداً عنها. شعرت بهذا الرفض وكأنه سكين غرز في صدرها. إنه لا يفهمها بهذا أن ما من رباط عاطفي بينهما وحسب، بل يبعدها عنه جسدياً أيضاً.

في الصباح التالي عادا بالطائرة إلى سويسرا. أثناء الساعة التي أمضتها في الطائرة، تخلت عن محاولتها التظاهر بأنها تشاهد الفيلم الذي اختارته. وكان راوول يعمل على الكمبيوتر، فأخذت تتسكع من حوله لكنه تجاهلها.

قالت وهي ترتجف: «لا بأس. لقد فهمت ما تريدني أن أفهمه. أنت تتمنى لو أتوارى من حياتك كجني أثيم».

نظر إليها عابساً من دون أن يتأثر، فوضعت يديها على وركيها وقالت بحرارة: «حسناً، لا تنظر إليّ وكأنني طفلة بحاجة إلى رعاية. إذا كنت أثقل على أعصابك إلى هذا الحد، فهيا.. طلقني».

هب واقفاً فأشرف عليها بقامته العملاقة بشكل مهدّد، وأخذ ينظر إليها بعنف: «كنت أتساءل كم من الوقت ستحتاجين قبل أن تتقدمي

بهذا الطلب. آسف إذا خيّبت أملك، لأن الوقت لم يحن بعد كي تتحرري».

- ماذا تعني بقولك هذا؟

- لا انفصال ولا طلاق. ستبقين في سويسرا حيث يمكنني أن أراقبك.

رغم ما يظنه فيها من طمع ومكر، لا يزال مصمماً على أن القصاص الوحيد لها هو أن يبقيها في سويسرا معه. خفّ الألم في قلبها قليلاً وشقّ شعاع ضئيل من الأمل طريقه. لعلها مخطئة في توقع الكثير منه بهذه السرعة.

وأخيراً تشجّعت وسألته: «ما هو شعورك الحقيقي حيال الطفل؟».

- كنت أنوي إنجاب واحد في النهاية.

قال هذا متذمراً كما لو أنه يتحدث عن أزرار كمي قميص: «والآن، وبما أنه سيأتي في وقت لم أتوقعه، ليس أمامي من خيار سوى أن أتكيّف مع هذا الوضع».

توترت ملامحها وغرزت أظافرها في راحتيها قبل أن تعود إلى مقعدها. ستمنحه بعض الوقت، فهو عنيد جداً، ولاذع جداً في شكوكه. إنه بحاجة إلى مزيد من الوقت، بحاجة إلى تفهمها. إن حبها له كبير، ولا بد أن يعود إليها.

ولكن هل سيتقبّل راوول هيلاري روس الحلاّقة، زوجة له؟ وإلى متى سيتقبّل بقاءها؟ يبدو أنه يظن أن من واجبه أن يرعاها طالما هي حامل بطفله. لكن لعله يخطط للطلاق مباشرة بعد الولادة. ولا بد أنه سبق واطلع على رأي القانون في مثل هذه المسألة.

إنه لم يتقبلها قط كزوجة. لكن، هل يمكنها أن تلومه؟ فهو لم

يطلب منها قط أن تكون زوجته وتعيش معه كما أنه لم يدعها لتنجب له طفلاً. من المهم أن تواجه الحقيقة حتى وإن كانت مؤلمة. وأقرت بتعاسة بأن راوول يشعر وكأنه وقع في شرك فهو يفضّل حريته.

إذا ما أسكتت كبرياءها مرة أخرى، وأصبحت مطيعة وهادئة حتى تستقر الأمور، فما هو أقصى ما ترجو أن تتلقاه من الرجل الذي تحب؟ أن يعاشرها مرة أخرى عندما يرغب في ذلك؟ يلقي إليها بقطعة ثمينة من المجوهرات إذا ما كان أداؤها جيداً؟ وهل سيؤنبها دوماً على أخطائها فيجعلها تشعر بالحقارة؟ هل هي مستعدة حقاً لأن تدع هذا يحدث؟

١٠ - وأحبك

في الصباح التالي، أخذ راوول هيلاري إلى إخصائي في أمراض النساء.

أربك راوول هيلاري بطرح الكثير من الأسئلة المعقدة على الطبيب الذي بدا مسروراً وهو يجيب عليها مع تفاصيلها العلمية. أما هيلاري فقد شعرت بأن كرامتها جرحت وهي ترى راوول يكشف عن اهتمامه بطفلهما للطبيب ولكن ليس لها.. ثم تساءلت بفزع عما إذا كان زوجها يمثّل للحفاظ على المظاهر فقط.

في الأيام الثلاثة التي تلت، كانت تعاسة هيلاري في ازدياد. كان راوول يتوجه إلى المصرف مع شروق الشمس ليعود في المساء متأخراً. لم يتناول معها وجبة واحدة، كما لم يقم بأيّ جهد لكي يخفف التوتر بينهما. لكنه اعتاد أن يتصل بها هاتفياً مرتين في اليوم متفقداً حالتها. بدا أن هذه هي العلاقة الشخصية الوحيدة التي كان مستعداً لها لأن الباب الموصل بين غرفتي نومهما بقي موصداً. كما أن تهذيبه البارد معها كان يبعث القشعريرة في كيانها.

وفي اليوم الرابع، استيقظت مع بزوغ الفجر فاستحمت وارتدت ملابسها لتبدو مقبولة في رفقته دون إفراط في الأناقة أو الإثارة، ثم أسرعت تنزل السلم لتشاركه الفطور.

توتر وجهه القوي، وأخذ يتأملها مقطباً.

- لماذا استيقظت في هذه الساعة المبكرة؟

www.elromancia.com

- أردت أن أراك. وهذا لا يكون إلا على الفطور، أو بالمقاطعة المحرّمة في مكتبك.

وبدت ابتسامة حازمة على شفتيها وهي تنظر إليه برجاء، وكأنها تقصد المزاح بكلامها هذا.

استقرت عيناه الذهبيتان على العباءة التي كانت ترتديها، والتوى فمه الشهواني الواسع بشكل خفيف للغاية.

كانت هذه العباءة المصنوعة من أفخر أنواع الحرير، تغطي جسدها من عنقها حتى أخمص قدميها بحشمة اعتبرها غاية في الخداع. وكان خصرها النحيل بارزاً ليس بسبب الحزام العريض وحسب بل بسبب امتلاء صدرها وبروز وركيها.

وضع فنجان قهوته على المائدة بعنف فيما تناولت هي بعض «التوست» وقلبها يخفق كالطبل. كانت تعي، وقلبها يتعذب، أنه يتأملها وأن التوتر يسود الأجواء.

- أنا...

بلّلت شفتيها بلسانها وهي تلتفت لتواجهه مسكتة كرامتها ومن دون أن تفكر في ما سيكلفها ذلك: «إني أفتقدك...».

- لا أريد أن أسمع هذا.

وألقى جانباً بصحيفة الصباح ثم هب واقفاً. وبسخرية لاذعة قال فيما هي تنظر إليه وقد اتسعت عيناها وانفرجت شفتاها بذهول: «لا أرغب في ذلك حتى لو صعدت إلى المائدة ورقصت».

ورمقها بنظرة ازدراء لاذعة: «عندما أرغب فيك، سأخبرك».

اغرورقت عيناها بدموع الإذلال وجلست تصغي إلى سيارته وهي تبتعد. حسناً! وعذبتها المشاعر. لن تدعه يفلت من عقابها بعد معاملته لها بهذا الشكل وكأنها مومس. ما كان ينبغي لها أن تعود

معه من سردينيا، كان هذا خطأ بالغاً. لقد أظهر بوضوح احتقاره لها، وستكون ساذجة إذا تركت زواجهما ينتهي بهذا الشكل. قبل أن تغادر سويسرا، عليها أن تنتقم لكرامتها وتجعل راوول يرى كما أخطأ في حكمه عليها. وأخذت تذرع غرفتها جيئة وذهاباً لتقرر في النهاية طريقاً واحداً سيمكنها من تحقيق هذه النهاية. عليها أن توقع وثيقة قانونية تثبت أنه ليس لديها أي أطماع مادية، هي تعرف الشخص المناسب الذي عليها أن تلجأ إليه. إنه محاميه بول كوريرو الذي سيسرّه جداً أن يراها توقع على وثيقة تؤكد أنها لن تطالب بأموال ساباتينو. بعدئذ، ستغادر سويسرا محفوظة الكرامة.

وعندما وصلت في وقت لاحق، إلى مكتب المحامي، أُخذت إليه مباشرة. أدهشها أن يستقبلها بول على الفور وأجفلت حين حياها وشكرها كثيراً على قدومها.

- أرادت آنيا أن تزوركما، أنت وراوول، وتعتذر، لكنني لم أوافق على هذا وفضلت أن أدع الأمور تهدأ أولاً. لقد هددتك وأخفتك. صدقيني، هذه ليست عادتي في معاملة النساء..

فقالت تخفف عنه: «أنا واثقة من ذلك».

- عندما أدرك راوول أن اختفاءك كان بسببي أنزل السماء على الأرض، وأنا لا ألومه.

- لم يكن هذا ذنبك.

- لا تحاولي مواساتي. لقد تدخلت في أمر ليس من شأني. بدا واضحاً أن علاقتكما كانت قوية للغاية وأنا لا أعلم ذلك فتسرعت وتصرّفت بغطرسة معتقداً أنني أنقذه. وهل راوول بحاجة إلى إنقاذ؟ وكأنه...

وضحك بارتباك.

- على أيّ حال، لقد انتهى هذا كله الآن. في الواقع، جئت لأراك لسبب مختلف جداً.

وأردفت محاولة التظاهر بالهدوء: «إنني بحاجة إلى محام لينصّ وثيقة قانونية، وبسرعة».

عندما حدّثته باختصار عما تريد، لم يستطع بول أن يخفي ذعره: «مستند من هذا النوع يجعلني في موقف خدمة مصالح متضاربة. لا يمكنني أن أمثلك وأمثّل راوول بينما أنتما متخاصمان في القضية نفسها. أنت بحاجة إلى نصيحة من محام مستقل».

تصلب جسمها إحباطاً ووقفت: «لا بأس».

تردد بول قليلاً، ثم عاد يقول باهتمام: «بصفتي صديقاً، كما أرجو أن تعتبريني يوماً ما، أريد أن أنصحك بعدم سلوك هذا الطريق. أخاف كثيراً من أن يسيء راوول فهم دوافعك فتجرح كرامته».

في طريقها إلى المنزل، أقرّت هيلاري بأنّ بول رقيق للغاية. إنه نقيض راوول ولا يمكن أن يوافقه على طريقة تفكيره على مشاعره العقلانية الباردة. مهما حاولت، لا يمكنها أن تجمع بين راوول ومفهوم الكرامة المجروحة في الوقت نفسه.

يرى راوول نفسه بعيداً عن الخطأ وعن الانتقاد. وهي وحدها المعرّضة دوماً لجرح الكرامة.

إنها تتساءل الآن عما جعلها تصل إلى هذا الحد في سعيها كي تثبت لراوول أنها لم تبحث عن الثراء منذ البداية؟ لِمَ ما زال هذا يهمها؟ إنه لا يحبها.. وهو يظن بها الأسوأ. حتى رؤيته لها على مائدة الفطور أزعجته. من الصعب أن تتذكر كم كانت سعيدة معه منذ أيام قليلة فقط، والأصعب من ذلك هو أن تتقبّل فكرة أنهما

سيتجاوزان بسلام هذه الفترة المريرة.

المشكلة هي أنها لطالما رضيت بالقليل مع راوول ساباتينو، كما أنّ ما تلقته عن استحقاق قليل للغاية. لكنها أصبحت من النضج بحيث يمكنها أن تبحث عن مصلحتها، فتحسب حساباً لاحتياجاتها، ومن ثم تنسحب من العلاقات المدمّرة.

لن يخبر راوول إيما قط بحقيقة زواجهما. في الواقع، لقد عجبت لنفسها كيف صدّقت تهديده القاسي ذاك. فهو نبيل للغاية، لكنه ما كان ليتباهى بهذا لأنه يعتبر المباهاة ضعفاً. لعلها تشبثت بذلك التهديد واتخذته عذراً لتبقى مع راوول إذ كانت متلهفة إلى إيجاد أيّ عذر. لكن الأمر انتهى الآن وعليها أن تسترد كرامتها. إنه فاسد وقد حان وقت خلاصها منه.

رن هاتف السيارة، وكان المتصل راوول. مجرد سماع صوته العميق كان كافياً لكي يجعل مشاعرها تفيض: «أرجوك ألاّ تسألني عن حالي لأنني أعلم أنك لا تهتم حقا لأمري. سأتركك وأرجو أن تعيش مع أموالك الغالية على قلبك بالرفاه والنعيم إلى أبد الآبدين».

ووضعت السماعة بعنف فيما أخذت ترتجف. ارتعشت لما خرج لتوّه كالبركان من بين شفتيها، لكنها الحقيقة وهو يستحق أن يسمعها. لقد رمى بحبها في وجهها ورفضه، وهي ستصب حبها كله على طفلهما بدلاً منه. وأخذ الهاتف يرن، فتجاهلته. كما رن هاتفها الخلوي فأقفلته إذ لم يعد لديها ما تقوله.

وبعد نصف ساعة كانت في غرفتها تحزم أمتعتها عندما انفتح الباب بعنف وبرز راوول عند العتبة: «لا يمكنك أن ترحلي.. لا يمكنني أن أعاني من ذلك مرة أخرى».

وشتم بعنف.

فوجئت بهذا الهجوم الصاخب الذي كان بعيداً عن صفات ذلك الرجل الهادىء المنضبط الذي تعرفه، وأخذت تحدق إليه. كان شديد الشحوب، متوتر الملامح. واشتبكت عيناه الغاضبتان بعينيها: «هل لديك فكرة عما عانيته في المرة الماضية؟ ألا تعرفين ما عانيته؟».

جمدت مكانها أمام مشاعر لم يظهرها من قبل، ثم هزت رأسها نفياً.

- يا إلهي! ذلك الأسبوع الذي مرّ بي قبل أن أستعيد ذاكرتي كاد يقتلني. لقد اختفيت فجأة من دون أن أعرف السبب. رحلت عن حياتنا تاركة لي أربعة أسطر اعتذاراً وكأنك تلغين دعوة إلى العشاء. كان هذا أمراً لا يصدق، حتى أنني لم أعرف أين أجدك. كدت أجن قلقاً.

ذعرت هيلاري لما كان يخبرها به: «لم أظن أبداً.. لم أتصور قط أن يكون شعورك على هذا الشكل».

- كان يُفترض بك أنت أن تخبريني حقيقة زواجنا.

أحنت رأسه وهي ترى أنه محق في لومه هذا. كانت جبانة فألّفت أعذاراً لنفسها. جلّ ما هدفت إليه تلك الأعذار، هو أن تحفظ ماء وجهها على حسابه. فضلاً عن ذلك، كيف أمكنها أن تكون عديمة الإحساس إلى حد لم تفكر فيه في تأثير اختفائها فيه؟

تعلقت نظراته بنظراتها حين حاولت أن تحوّلها عنه تجنباً لتفحصه الدقيق لها: «كنت أثق وأعترف أن هذا الخيار كان الخيار الوحيد أمامي في البداية، لكن علاقتنا تطورت بسرعة فتخليت عن الحذر معك. اعتقدت أننا زوجان عاديان، وتعلمت أن أعتبرك زوجتي. وفجأة، وجدت هذا كله ينفجر في وجهي».

شعرت هيلاري بغصة. فمنذ أعادها من لندن وهي ترفض أن تعترف إلى أي حد ساهم سلوكها في زيادة غضبه وعدم ثقته. وشعرت بالخجل: «لا بد أنني بدوت لك أنانية للغاية.. لكنني، صدقني، لم أكن أظن أنك ستفتقدني إلى هذا الحد...».

أطلق راوول ضحكة تفتقر إلى البهجة: «ماذا تظنينني؟ قطعة خشب؟».

فواجهته باضطراب: «لا بل بارد كالثلج وشديد التنظيم والتحكم في النفس. ومزهو بهذا أيضاً».

فالتوى فمه الجميل: «لقد ربوني على أن أكون قوياً وحذروني من الضعف أمام أيّ امرأة. زيجات أبي وجدي الفاشلة ملأتهما مرارة. وعندما تبدّل جدي كان الأوان قد فات على التأثير فيّ، ولهذا السبب كتب تلك الوصية غير المعقولة. كانت آخر محاولة منه لكي يقنعني بأنني أذا جازفت، فسأتمكن من كتابة تاريخ الأسرة من جديد وأنتهي بزواج سعيد».

فقالت وهي تغالب دموعها: «حسناً.. لم يعد ثمة حاجة لهذا الجدال، لكن قصر «كاستيلو» بقي للأسرة على الأقل».

- أريدك أن تعلمي أنني كنت في طريقي لرؤيتك عندما اتصل بي بول...

احمر وجهها شاعرة بالإهانة: «لماذا يساند الرجال بعضهم البعض دوماً؟».

فقال ساخراً وعيناه في عينيها: «تملكنا الذعر عندما فهمت أي نوع من المستندات تريدينه، كما تملكني الخجل وأدركت على الفور أنني من دفعك إلى ذلك».

أخذت تتفحصه بعينين متسعتين مرتبكتين: «ما الأمر معك؟ لماذا

لم تشعر بالسرور؟ ولماذا تشعر بالخجل؟ أردت أن أوقع على تعهّد بألاّ أرفع عليك أيّ دعوى أطالبك فيها بالمال أو بأي شيء آخر تملكه».

- لكن هذا خطأ فلديك كل الحق في أن تشاركيني في ما أملك..

- بل هذا سيؤكد لك مرة وإلى الأبد أنني لا أريد ولا أحتاج أيّ شيء منك.

أخذ نفساً عميقاً ممزقاً ووقف منتصباً: «لقد اتهمتك بأنك تبحثين عن الثراء لأنني أستطيع بهذا أن أتجنب الحديث معك عن شعوري نحوك».

رفعت حاجبها: «لم أفهم».

- عندما كنت فاقد الذاكرة، تعودت على وجودك بقربي. وعندما استعدت ذاكرتي، تملكني غضب عارم منك لأنك جعلت مني رجلاً أحمق!

هذه الإدانة الصريحة جعلت الشحوب يعلو وجهها، وقالت: «لم يكن هذا قصدي، ولا يمثل رؤيتي لما يحدث بيننا».

- استطعت أن تخدعيني، ولم يعد لدي ثقة بقدرتي على فهمك.

بدا التوتر واضحاً على جسده الجبار، ثم استدار مبتعداً عنها: «مهما بلغت عدم ثقتي بك، إلا أنني ما زلت أريدك أن تعودي إليّ ولا علاقة للأمر بالرغبة الجسدية».

بدا الانتعاش على هيلاري لهذا الاعتراف المبشر بالخير، وقالت: «لكنك لطالما أردتني أن أظن أن علاقتنا تقتصر على ذلك».

توترت أساريره: «كنت أخفي مشاعري... كنت...»

وقطع كلامه ثم هزّ كتفه بإحباط: «كنت...».

- كنت... ماذا كنت؟

- كنت خائفاً...! هل فهمت؟

اعترف بهذا رغماً عنه وكأنها كانت تسدد إليه فوهة بندقية: «كنت خائفاً.. عرفت أحاسيس لم أشعر بها قط من قبل ما أفزعني لكن، عندما ذهبنا إلى سردينيا، كان اضطرابي قد بدأ يهدأ. بدأت أشعر بالارتياح وعدت أثق بك من جديد....»

فتحت فمها مذهولة: «ثم اعترفت لك بأنني حامل...».

- ومرة أخرى، تكتمت على أمر يخصنا. ليتك شاركتني هذا الخبر على الفور! أمضينا ذلك الأسبوع كله معاً وأقرب إلى بعضنا البعض مما سبق، بينما أنت تخفين عني أنك حامل بابننا. لقد صدمني ذلك للغاية، وجعلني أتساءل عما قد تخفينه أيضاً.

- كنت خائفة من رد فعلك.

بدت محاولتها الدفاع عن نفسها ضعيفة لأنها أدركت أن ترك راوول جاهلاً بأمر حملها زعزع ثقته بها مرة أخرى.

تشابكت نظراته بنظراتها المرهقة: «أردتك أن تكوني صادقة، لكنك لم تكوني كذلك. ففقدت الثقة بقدرتي على الحكم بشكل صائب ومنذ ذلك الحين أصبح كل ما حولي هشيماً».

فقالت بتعاسة: «ليست جريمة تستوجب الشنق إذا لم ترغب بطفل لا تريده مني».

- بل أريد طفلنا بكل تأكيد. لكنني كنت خائفاً من أن أمرّ بالتجربة نفسها مرة أخرى. إنني في حالة صراع مع نفسي منذ ذلك الحين. ورغم أنني كنت مصمماً على البقاء معكما أنتما الإثنين إلا أنني كرهت فكرة أن تبقي معي فقط لأنك حامل. هل ترين في هذا حماقة؟

فتمتمت بأسى: «لا. كان هذا شعوري أنا أيضاً».

- حاولت جهدي التحكم في نفسي لكن الزمام أفلت من يدي، وانتهى بي الأمر باتهامك بما لم أكن أنا نفسي مقتنعاً به. كنت أعلم أن الطفل من صلبي، لكنني لم أشأ أن تظني أنك آذيتني مرة أخرى. لهذا، قررت أن أجرحك أنا أولاً.

تكلّم بندم صادق، فيما راحت هي تصغي بمزيد من الاهتمام إلى هذا الاعتراف المدهش. هل جرحته؟ هل قال حقاً هذه الكلمات؟ وعاد يقول: «قاومت شعوري نحوك منذ ذلك الحين، لكني لن أستطيع ذلك بعد الآن. حاولت أن أعتاد مقاومتك».

فهمست تقول: «أنا لست مرضاً...».

- عدم رؤيتك هو الشيء الوحيد الذي نجحت فيه. وفجأة رأيتك تنزلين لتناول الفطور، مرتدية تلك العباءة... عندئذ، أدركت أن محاولاتي لمقاومتك فشلت كلياً....

- لقد آذيت شعوري...

- وأنا آسف لذلك. كنت غاضباً من نفسي وليس منك. ثار غضبي لأنني لم أستطع أن أتحكم برغبتي فيك، لهذا لجأت إلى السخرية.

- وكانت هذه هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير كما يقول المثل.

فقال بسرعة: «لن يحدث هذا مرة أخرى. هذه المشاعر جديدة بالنسبة إليّ وتقبلّها ليس بالأمر السهل. أتظنين أن بإمكانك أن تمنحيني فرصة أخرى».

اغرورقت عيناها بالدموع وهزت رأسها ومشاعرها فائضة بحيث لم تدعها تنطق بالنفي. وأمسك بيديها المتشابكتين: «أرجوك...».

ومرة أخرى هزت رأسها، وقالت وهي موشكة على البكاء: «لا

أريد رجلاً يعتبرني درجة ثانية بالنسبة إليه وعليه أن يقاوم حتى رغبته فيّ...».

- الأمر ليس بهذا الشكل. لو اقتصرت المشاعر على الناحية الجسدية، لما تدهورت أموري إلى هذا الحد. إنني مرتاح تماماً لهذه الناحية من علاقتنا، لكن المشكلة تكمن في ما لم أتعوّد عليه. ألا تدركين كم تعنين بالنسبة إليّ؟

وأمسك بيديها بلهفة وعيناه اللامعتان تخترقان عينيها برغبة عنيفة: «لقد قلت هذا في سردينيا. قلت إنني كنت سعيداً جداً حين عشت حكاية هذا الزواج الخرافية. وكنت على حق، فأنا لم أشعر في حياتي بمثل تلك السعادة التي شعرت بها حينذاك».

ذهلت هيلاري لهذا الاعتراف بينما أردف: «يمكنك إذن أن تتصوري حالتي عندما علمت أن القصة الخرافية لم تكن سوى حلم. ظننتك تحبينني، وقد تعلمت أن أحب تلك الفكرة...».

- أحقاً؟

- لقد أحببتك. لم أعرف الحب من قبل فلم أدرك، لسوء الحظ، ما سبب الاضطراب في مشاعري...

- بل قل الانسجام في مشاعرك...

صححت له كلامه، وهي تصغي بلهفة إلى كل كلمة ينطق بها.

- حسناً، لم أجد في ذلك انسجاماً في بداية الأمر. فقد كنت تعيقينني عن عملي..

ارتجفت: «هل فعلت هذا حقاً؟».

فقال برصانة بالغة: «كان ذهني ينصرف إليك حتى أثناء الاجتماعات الهامة».

- هذا أكثر مما كنت أرجوه.

واغرورقت عيناها بالدموع وأحاطت عنقه بذراعيها: «وأنا أحبك. أحبك كثيراً وسأجعلك أسعد رجل».

سحقها بعناق عاطفي أفصح من أي كلام. وبقيا متعانقين، مستمتعين بهذا التقارب الذي كانا يخافانه هما الاثنين وسيستمر إلى الأبد.

- ما أروع ما جعلتني أشعر به!

فقالت بحرارة: «أترى... حبك لي ليس بالأمر السيء تماماً».

- بل هو كذلك إذا بقيت تهربين مني وتهددينني بالهجر.

- لن أهرب بعد الآن، ولن أهددك بالهجر مهما جننتني.

أحنى رأسه الجميل واختلس قبلة واحدة رقيقة جعلتها تشرق بمشاعر الحب. نظر إلى وجهها المرفوع إليه بعينيه الذهبيتين اللامعتين وقال: «منذ أربع سنوات، لم أكن أظن أنك ستشكلين خطراً على نمط حياة العزوبية التي كنت أعتز بها، يا عزيزتي».

- حينذاك لم أكن ناضجة بالنسبة إليك، لكنني وقعت في غرامك منذ أول مرة رأيتك فيها.

- وأنا انجذبت إليك بقوة بالغة لكنني لم أعترف، حتى لنفسي، بذلك. وهذا هو سبب ترددي إلى الصالون حيث كنت تعملين.

وعانقها مرة أخرى فأغمضت عينيها حالمة فيما أضاف: «عندما انتهى حفل الزفاف ذاك، لم أعد أثق بنفسي حين أكون بجانبك...».

فسألته مشككة: «أصحيح هذا؟».

ردّ بأسف: «صحيح. الزواج منك أبعدك عني، لكنني احتفظت بصورتك في محفظة نقودي طيلة أربع سنوات».

اتسعت عيناها الكبيرتان وأشرق وجهها سروراً فيما ارتسم الحنان على وجهه: «أحب أن أراك في ثوب زفاف ترتدينه من أجلي. علينا

أن نفعل شيئاً ما في هذا الخصوص. علينا أن نجدد عهود الزفاف ونبارك زواجنا!».

فقالت وقد تملكها التأثر: «كم أحب هذا... لكن عليك أن تنتظر إلى ما بعد ولادة الطفل».

* * *

فسارع يقول من دون تردد: «كلام فارغ».

بعد أحد عشر شهراً، جدد راوول وهيلاري عهود زواجهما في كنيسة صغيرة تبعد ميلاً واحداً عن «قصر كاستيلو».

حملت هيلاري ورداً صفراء وارتدت ثوب زفاف رائعاً بصدر مطرز وتنورة واسعة. لم يكن العروسان السعيدان ينظران إلا إلى بعضهما البعض. وتلا الاحتفال وجبة طعام رائعة وحفلة كبرى. أعز صديقاتها، بيبا وتابي، حضرتا مع زوجيهما أندريو وكريستيان، كما دعيا بول وآنيا كوريرو للمشاركة.

وكانت آنيا وهيلاري قد أصبحتا صديقتين حميمتين كحال زوجيهما. وحضرت أختها إيما. أما ضيف الشرف فكان بييترو، أصغر عضو في أسرة ساباتينو. لكن وبما أنه لم يكد يبلغ الشهر الثالث من عمره، ولا يهتم على الإطلاق بمثل هذا الاحتفال، فقد نام معظم النهار.

وفي وقت لاحق في تلك الليلة، وضعت هيلاري ابنها في سريره في غرفة الأطفال الرائعة، التي أشرفت على تأثيثها له ببهجة كبرى. كان لابنها شعر أبيه الأسود وابتسامة حلوة تثبت أنه يتلقى رعاية كافية.

لم تستطع أن تصدق أنها وراوول، يكادان يحتفلان بعيد زواجهما، غير الرسمي، الأول. وابتسمت لنفسها شاعرة بالأمان

والرضى. لقد أمضيا الكثير من الوقت في قصر «كاستيلو» حيث كان الزمن يمرّ ببطء. كما قلل راوول من أسفاره أثناء حملها، ودللها بشكل جنوني.

تمتم راوول بصوت أجش من على بعد أقدام معدودات منها: «رائع...».

ألقت هيلاري نظرة فخر على ابنهما النائم: «إنه طفل جميل فعلاً. أليس كذلك؟».

فأحاط خصرها بذراعه: «لم أكن أتحدث عن بيترو».

- أحقاً؟

أخذت تتأمل ملامحه السمراء الوسيمة ولاحظت نظرة الاستحسان في عينيه، فتسارعت دقات قلبها وجف فمها.

- بدوت في غاية الجمال الليلة. كم كنت فخوراً لأنك زوجتي! هل تدركين أن هذه الليلة توازي ليلة عرسنا الماضية التي لم نستمتع بها قط؟

وهنت ساقاها ومالت عليه من دون خجل فيما تأوه هو وحملها إلى غرفة نومهما.

همست بدلال وقد تملكتها الإثارة: «أما زلت تحبني؟».

أشرقت ابتسامته الحساسة بحرارة لها وحدها: «حبي لك يزداد يوماً عن يوم».

وبقلب مفعم بالفرح، أحاطت عنقه بذراعيها، ثم جذبته إليها.